# السّراج

العدد الرابع

العدد الرابع سبتمبر2018 م

الموافق لــ محرم1439هـ


**ابْنَ بَاديْس**

شهرزاد مديلة ص28

**إلَيْكَ أَيّهَا القَبْر**

صلاح المكاوي ص35

**المَقَامَة البَاديْسيَّة**

عيسى عزوق ص43

**الاصْطفَاءُ الإلَهي في شَخْصيّة ابْن بَاديْس**

سميـــــر أبيـــــش ص15

**د.مولود عويمر** ص04


العلامة عبد الحميد بن باديس كان مفكرا كبيرا اشتغل بقضايا إنسانية وعالجها بأسلوب علمي دقيق وتحليل عميق

حوار العدد مع الدكتور مولود عويمر عن :

الإمام العلاّمة

عبد الحميد بن باديس ص04

# الفهرس

## المقالات :


-عبد الحميد بن باديس وجمعية العلماء رؤوف بن الجودي ........ 09

-الثورة الحقة أبو عبد الرحمن الجباري ........ 12

-الاصطفاء الإلهي في شخصية عبد الحميد بن باديس سمير أبيش ........ 15

-مجتمع الطهر والعفاف في فكر ابن باديس وكتاباته سمير سمراد ........ 18

-التداولية وبلاغة الخطاب في قصيدة ( شعب الجزائر مسلم ) د. محمد مدور ........ 21


## القصائد :


-ابن باديس شهرزاد مديلة ........ 28

-إليك ابن باديس زيد الطهراوي ........ 28

-جزائر أحمد بهناس ........ 29

-ما قصر ابن الكرام بوبكر بن سبع ........ 29


## القصص :


-عقدة سعاد ربيعة برباق ........ 33

-إليك أيها القبر صلاح المكاوي ........ 35

-مقالات زمن الحرب حنان صادق ........ 37

-وليد البطل جهيدة بن عيسى ........ 39

-نيزك النجاة فاطمة الزهراء بطوش ........ 41


## المقامات :


-المقامة الباديسية عيسى عزوق ........ 43

-مقامة الأحوال أسامة حسين حامد ........ 45

-المقامة المدرسية صلاح المكاوي ........ 46

-المقامة الحسينية محمود العيسوي ........ 48



السّراج

العدد الرابع سبتمبر2018 م

الموافق لـ محرم1439هـ

رئيس التحرير

عنتر رمضاني

نائب رئيس التحرير

عزالدين لزعر

هيئة التحرير

محمد كرزون

عنتر رمضاني

جابري سارة

هيئة المراقبة

الحبيب عبيدات

جهيدة بن عيسى

شيماء العابد

فاطمة الزهراء بطوش

تصميم: عنتر رمضاني


## شروط النشر بالمجلة

أن يكون الموضوع ضمن أحد أركان المجلة

توخي الموضوعية في الطرح مع سلامة اللغة

تكون المقالات هادفة ولا تتجاوز خمس صفحات

والقصائد الشعرية من 7 أبيات إلى 30 بيت

## إعـــلان هام

ترقبوا في العدد الخامس نتائج

مسابقة

فنّ المعارضة الشعرية

لثلاثين بيت من معلقة عنترة بن شداد العبسي

« هل غادر الشعراء من متردَّم »

إيميل المجلة

esiradj.magazine@gmail.com

* * *

# الافتتاحية

دأبت مجلة السراج على العمل بجهد وإخلاص، محتذية في ذلك كله بسير العلماء الأعلام، راجية تحقيق رسالتها في بث الثقافة والأدب الصحيح. وإنما مما يرسِّخ عقيدتنا هذه هو إفرادها بعدد أو ملف خاص، نجعله مطية لأعداد أخرى، إن نسأ الله في عمر السراج، لتكون نقلة نوعية تجعل من المجلة أكثر ثراء وإمتاعا. فاختارت مجلة "**السراج**" في هذا العدد الحديث عن شخصية بارزة، وقامة عظيمة من قامات وطننا العزيز ألا وهو "الشيخ العلامة عبد الحميد بن باديس" رحمه الله ، هذه الشخصية التي سعت بكل غال ونفيس لبناء نهضة جزائرية تقوم على أصول متينة، وأسس فذة، تحقق لها الغايات التي يطلبها كل شعب أبيّ، يروم الحرية والأمان.

ولم تكن رسالة ابن باديس هذه عبثا من القول أو سقطا من الفعل، بل كانت عملا قويما، ودعوة صحيحة رافقتها تضحيات جسام، وخطة متينة، ضربت لنا أروع الأمثلة في بناء صرح الأمم والأجيال وخدمة الوطن.

لذا كان من المهم أن نسلط الضوء أكثر على هذه الشخصية الفذة باستضافتنا للدكتور والمؤرخ الجزائري "**مولود عويمر**" في ركن الحوارات، الذي كشف لنا خبايا كثيرة عن هذا العلم الجليل، وشخصيته الفريدة والعجيبة؛ بالحديث عن سيرته وأهم أعماله التي كرسها خدمة للجزائر والجزائريين.

على أن خطة المجلة سوف تتغير بدءا من العدد القادم بحول الله،حتى تواكب تطلعاتنا، التي نرجو من خلالها أن تكون مجلة السراج منارة طيبة لنشر الأدب والثقافة وسط المهتمين على الوجه الذي يكون خادما لرسالتها.

**رئيس التحرير: عنتر رمضاني**

حاوره / عنتر رمضاني

# حوار مع الدكتور مولود عويمر

# عن العلامة: عبد الحميد بن باديس

ضيفنا لهذا العدد من مواليد 30 جوان 1968 ببوغني ولاية تيزي وزو / الجزائر.
متحصل على شهادة بكالوريا الآداب الجزائر، جوان 1987، وشهادة ليسانس في التاريخ من جامعة الجزائر، جوان 1991
ثم شهادة الماجستير في التاريخ المعاصر من جامعة بواتييه، سبتمبر 1993، دبلوم الدراسات المعمقة في التاريخ المعاصر من جامعة بواتييه، جوان 1994،
ثم شهادة دكتوراه في التاريخ المعاصر من جامعة باريس، أفريل 1998،
شغل منصب أستاذ للحضارة والتاريخ في المعهد الأوروبي للعلوم الإنسانية بباريس (2001 و 2004). وباحث متعاون مع المعهد العالمي للفكر الإسلامي (2001-2004). كما أنه عضو مؤسس لجمعية العلماء الاجتماعيين المسلمين بفرنسا (2002).
أشرف على عدة رسائل الدكتوراه والماجستير. له مؤلفات عديدة في التاريخ والسير وغيرها، منها: تراث الحركة الإصلاحية الجزائرية (3 مجلدات). مالك بن نبي حياته وآثاره، عبد الحميد بن باديس.. مسار وأفكار (ط 2).شخصيات وذكريات (ط 2). مقاربات في الاستشراق والاستغراب (ط 2)، العلماء الأخلاء، السجالات الفكرية في الجزائر (1936-1956).

مجلة السراج ترحب بحضرة البروفيسور **مولود عويمر**، أستاذ تاريخ الفكر المعاصر بجامعة الجزائر 2. تسعد بالحوار معك لنسلط الأضواء على مسارك العلمي، ونتحدث كذلك عن كتاباتك القيمة حول شخصية هذا العدد، وهو العلامة عبد الحميد بن باديس رحمه الله. فشكرا لك على تلبية دعوتنا، ودمت ذخرا للوطن، وللعلم والمعرفة.

**- بروفيسور مولود عويمر، الناظر في سيرتك العامرة، يرى أنك بذلت جهدا كبيرا في دراسة التاريخ المعاصر وإحياء التراث الفكري الإسلامي والإنساني. فلو تكلمنا عن بداياتك واهتماماتك في هذا المجال؟**

لا أستطيع أن أحدّد بالضبط اللحظة الحاسمة التي قررت فيها أن أصبح مؤرخا. كل ما أستطيع أن أقوله لك الآن هو أني كنت مولعا بقراءة سير العظماء وأنا طفل لا يتجاوز عمره اثني عشر سنة. وقد وجدت في مكتبة المدرسة المتوسطة ما أشبع رغباتي وأروى عطشي في هذا المجال. فقرأت كل السلاسل التربوية المعروفة آنذاك والكتب الموجهة للأطفال والشباب حول الأعلام والمشاهير سواء كانوا من العرب والمسلمين أو كانوا من المنتسبين إلى الثقافات الأخرى.

ولم تكن مطالعاتي تتوقف عند نهاية الصفحة الأخيرة للكتاب، إذ كنت أنسخ بخط يدي -في ذلك الزمان الذي لم تخترع فيه بعد آلات النسخ الحديثة- أجزاء من الكُتب لأعيد قراءتها في الأوقات الأخرى. بل كنت أحاول أن أجسد بعض المشاهد أو أقلّد بعض المواقف الراسخة في الذهن.

وأذكرلك على سبيل المثال أني قرأت بنهم كتابا عن الشاعر البريطاني وليام شكسبير (1564-1616) في سلسلة «عباقرة خالدون»، ثم نسخته بيدي في كراس مدرسي. كما حاولت تمثيل صورة ملحقة بالنص، كلما تجولت في الغابة المحيطة بمدينتي الصغيرة؛ فكنت أجلس تحت الشجرة مثل شكسبير، وأردد بعض أقواله التي حفظتها من الكتاب، وعيناي متجهتان نحو الجبل الشامخ الذي يخفي وراءه عوالم مجهولة كنت أتطلع دائما إلى اكتشافها.

هكذا تولّد حب التاريخ عندي، ونمى هذا العشق بعد ذلك بفضل القراءات في المجلات والمطالعات في الكتب ومشاهدة المسلسلات والأفلام التاريخية.

**- لو تحدثنا بروفيسور عن جملة من أكثر المصاعب التي لاقتك أثناء بحوثك في تاريخ الجزائر أو في التراث عموما؟**

لا شك أن البحث في التاريخ فيه متعة اكتشاف المجهول، ولذة قراءة الوثائق المغمورة والمخطوطات، وفرص السفر عبر العصور

والقارات بدون دفع ثمن التذكرة أو الاصطفاف في طوابير طويلة أمام القنصليات للحصول على التأشيرة.

غير أن هذه الصورة الجميلة تخفي وراءها متاعب الباحث في دهاليز المكتبات أو مراكز الوثائق التي تحتاج إلى الصبر على المتاعب، والتحكم في طرق البحث واستعمال الأدوات العلمية بالشكل المناسب حتى لا يقع الباحث في فخ الوثائق التي تكون ربما مزوّرة أو ناقصة، وتكون بالتالي كل المعلومات المنبثقة منها خاطئة أو غير كاملة، ولا تصلح للاستدلال والاستنتاج حتى لا يظلم الناس بغير حق.

فالمؤرخ هو باستمرار تحت المجهر، لا يسأل فقط عن مصادره بل يسأل قبل ذلك عن صحتها وقوتها. فلا يتمتع بحرية الروائي أو الأديب الذي يطرح ما يشاء من أحداث وآراء ومواقف دون الحاجة إلى الاستدلال وذكر المصادر لأن المطلوب منه هو جمالية النص ولا يهم أن يكون مصدر معلوماته التاريخ أو الخيال أو الواقع. فالمؤرخ مربوط دائما بالوثيقة الصحيحة، فبدونها يتعطل عمله. وكم من أعمال تعطلت لما وجد المؤرخ أبواب مراكز الأرشيف أو أرشيف العائلات أو الشهادات الشفوية أبوابا موصدة. لا ريب أنه يستطيع أن يكتفي بالوثائق الموجودة أو يوظف قليلا خياله لكن هذا الأمر غير متاح دائما خاصة فيما يتعلق بالقضايا الحساسة.

ويبقى أن أضيف في النهاية أن المؤرخ لا يمكن له أن يبدع إلا في بيئة حرة تقدر قيمة التاريخ كتراث مشترك بسيئاته وحسناته، وتناقش بهدوء انتصاراته وإخفاقاته، فالحرية هي أساس الإبداع في كل شيء.

**- لقد نشرت كتبا وبحوثا كثيرة في تاريخ الجزائر. ما هي أبرز القضايا التي تناولتها أعمالك؟**

التاريخ يشهد على إسهام الإنسان الجزائري في الحضارة الإنسانية التي كانت في تطوّر مستمر بفضل تراكمات أعمال الإنسان وهو يستغل ثروات الكون للتغلب على كل التحديات التي تعيق حياته وتهدد وجوده. وقد توجت كل هذه الجهود عبر العصور ببناء حضارة متنوّعة راقية. وقد درست في بحوثي وكتبي بعض هذه الأعمال في الفترة المعاصرة، بحكم التخصص وليس انتقاصا من قيمة الفترات الأخرى القديمة والحديثة.

وخلافا لما هو معروف، فإن تأثيرات الجزائر في العالم العربي والإسلامي لا تقل عمقا وامتدادا عن التأثيرات المشرقية في الجزائر وذلك في كل المجالات. فقد بينتُ على سبيل المثال في كتابي « **العلاقات الثقافية بين الجزائر والمشرق العربي في القرن العشرين**» دور الجزائريين في الحياة الثقافية في المشرق العربي. كما تطرقت في كتابي «**التواصل الفكري بين النخبة الإصلاحية في المغرب العربي**» إلى إسهامات الجزائريين في الحياة الفكرية في المغرب وتونس وليبيا، وانعكاساتها على الحركات الوطنية المغاربية.

وعالجت في كتابي «**الفكر الإصلاحي المعاصر وقضايا التنوير**» ريادة بعض العلماء الجزائريين في تناول موضوعات التقدم وأفكار لنهضة قبل العديد من العلماء المسلمين المشهورين في القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. وبينت كذلك في كتابي «**مالك بن نبي رجل الحضارة**» مدى انتشار الفكر البنابي في العالم العربي والإسلامي، واهتمام نخبه بأعماله ودراسة أفكاره النهضوية وتطبيق بعضها في مشاريعها التنموية.

وهناك إسهامات كثيرة أخرى للعقل الجزائري في الحضارة المعاصرة سواء في العالم العربي أو في العالم الغربي فصلت الحديث عنها في كتبي الأخرى.

**- تعرضت للكثير من الشخصيات التاريخية، وتناولتها بالدراسة والبحث، فما هي الشخصية التي تركت أثرا عميقا في نفسك دون غيرها؟**

لقد كتبت عن المفكرين العرب والمؤرخين المسلمين والمستشرقين، وحاولت في كل مرة أن أقدم ترجمة مختصرة لكل علم، وكذلك عرض أهم نشاطاته أو دراسة مواقفه أو آرائه أو أفكاره حسب طبيعة كل شخصية.

وفي غالب الأحيان اخترت الشخصيات التي أكتب عنها لقناعتي بإسهاماتها في تطور الإنسانية وخدمة العلم. كما أنني كتبت عن بعض الأعلام بطلب من بعض المجلات لتنشر كدراسات في الأعداد الخاصة أو من طرف الجامعات أو الجمعيات لتقدم على شكل محاضرات في ندواتها التاريخية أو مؤتمراتها العلمية.

وحقيقة، عشت قرابة عشرين سنة وأنا أكتب عن الأعلام من الشرق والغرب، ولا شك أنني تأثرت بأفكار عديدة، واستفدت من تجارب مختلفة، واكتشفت عوالم فكرية وحضارية متنوعة. وربما تظهر هذه التأثيرات في طرحي الفكري أو في أسلوب كتابتي أو في طريقة كلامي، .... يلحظها الناس بينما أعجز أنا عن إدراكها. لكن، ما أدركه هو أنني معجب بالعديد من العظماء بغض النظر عن التخصص العلمي لكل واحد منهم، أو اعتقاده الديني أو انتمائه الثقافي.

ومصدر الإعجاب هو بالدرجة الأولى تلك القيم السامية التي آمنت بها الشخصية المدروسة وناضلت من أجل تحقيقها على أرض الواقع. ويأتي بعد ذلك الإبداع الفكري والتجديد العلمي والتأثير الثقافي. وكل

الذين كتبت عنهم توفّرت فيهم هذه المواصفات بدرجات متفاوتة، وهي كلها جديرة بالاستلهام منها في جوانب مختلفة من الحياة.

**- الحديث عن ابن باديس ممتع حقا، كيف لا ونحن نتكلم عن الهمة العالية، والتضحية المجيدة، والنبوغ العلمي والأدبي، فما الذي يمثله شخص العلامة ابن باديس في نظرك؟**

تراءى لي في بدايات دراستي أن الشيخ عبد الحميد بن باديس هو معلم، هاجسه محو الأمية وتعليم أبناء الجزائر أبجديات اللغة العربية ومختارات من آدابها. ثم اعتقدت بعد ذلك أن ابن باديس عالم مهموم بتلقين مبادئ الإسلام وبعض العلوم الشرعية لتلاميذه وروّاد مساجده ومجالسه، والإفتاء للسائلين في قضايا الدين.

غير أن قراءات كثيرة لتراث ابن باديس وما كتب عنه غيّرت رأيي، وأقنعتني أنه يختلف عن كثير من المعلمين الأخيار والعلماء الكبار، فقد كان مفكرا كبيرا اشتغل بقضايا إنسانية، وعالجها بأسلوب علمي دقيق وتحليل عميق لم أقرأ مثله إلا في كتابات النوابغ من الشرق والغرب الذين انبهرت بهم، وتعلقت بأفكارهم.

الشيخ عبد الحميد بن باديس جسّد قيما كثيرة في حياته الشخصية والعامة. ولن تجد تناقضا بين ما يؤمن به من مبادئ وما يطرحه من أفكار وبين ما يتخذه من مواقف وما يعيشه في واقع الناس. كان بورجوازيا لكنه تنازل طوعا عن طبقته الاجتماعية ليعيش حياة بسيطة مع المستضعفين وطلبته الفقراء، وينفق كل ما يملك من المال في خدمة مشروعه الإصلاحي.

لقد سافر إلى فرنسا في عام 1936 ولكن قلبه بقي معلقا بمدرسة التربية والتعليم وجامع الأخضر بقسنطينة، فقد كان يفكر في ديون صندوق الطلبة، وهو جالس في الباخرة التي نقلته من الجزائر إلى مرسيليا.

وكان أيضا يعمل دون أجر بين 16 و20 ساعة في اليوم متفرغا للتعليم، ومتابعة أعمال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وإلقاء الدروس، والمحاضرات عبر التراب الجزائري الفسيح، والكتابة والإشراف على إصدار مجلة «الشهاب». لذلك لم يقدر جسمه النحيف على تحمّل ثقل هذا العبء المستمر في بيئة معادية يهيمن عليها الاستعمار وأذنابه، وكان هذا الإرهاق المضاعف سببا في موته المبكر، وهو في أوج عطائه. وكان قادرا أيضا أن يهاجر إلى المشرق العربي ويعيش هناك معززا ومكرما لكنه آثر تنوير عقول الجزائريين وكفاح الاستعمار في الجزائر على الراحة في الشام أو الحجاز.

**- ما هي العوامل التي أهلت ابن باديس لكي يصل إلى ما وصل إليه؟ وما هي الشخصيات التي أثرت فيه؟**

هنالك عوامل متعددة صنعت شخصية الإمام عبد الحميد بن باديس.

لا شك أ، العامل الأول هو تلك القدرات العقلية التي وهبها الله له من الذكاء والذاكرة والنباهة. وقد ظهرت علامات نبوغه مبكرا إذ تفوّق على كل دفعته من طلبة جامعة الزيتونة، وحصل على المرتبة الأولى.

وقد تفجرت هذه المواهب بفضل تأثره بمجموعة من الأساتذة المصلحين كالشيخ حمدان الونيسي في قسنطينة، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور والشيخ محمد النخلي والشيخ محمد الخضر حسين والأستاذ بشير صفر في تونس، والشيخ حسين المدني في الحجاز.

كما كان لوالده دور آخر وهو توفير كل الأسباب المادية ليتفرغ ابنه للتحصيل العلمي ثم كان له عونا في الدعوة في بدايات عمله الإصلاحي. ولا ننسى نقطة أخرى وهي المطالعة المستمرة التي تحسّن الأسلوب وترفع المستوى الفكري وتغذي بالمعارف، وتجدّد الرؤية وتزيد في الحكمة.

والذي يطّلع على مكتبة الشيخ ابن باديس العامرة أو يقرأ كتاباته يلحظ بدون مشقة تنوع قراءاته وغزارة معلوماته، وكثرة مصادره، وتعدد اهتماماته إذ لم تكن شرعية فقط وإنما كانت أيضا أدبية وتاريخية وسياسية.

**- على ماذا قامت سياسة ابن باديس في رئاسة الجمعية؟**

ركز الشيخ عبد الحميد ابن باديس رحمه الله على التعليم والتربية. وكان شغله الشاغل بعد عودته من تونس والحجاز هو إصلاح العقيدة ومحاربة الجهل وإحياء القيم السامية عن طريق تعليم النشء ذكورا وإناثا. فقد رفع شعار التعليم أساس الإصلاح. واستمر ابن باديس في التعليم في مسجد سيدي قموش وجامع الأخضر بقسنطينة.

عندما تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في 5 ماي 1931، واصل ابن باديس عمله التعليمي والتربوي رغم أعباء تسيير هذه الجمعية، وتفقُّد شُعبها عبر التراب الجزائري. أما أهم الأعمال التي أنجزها ابن باديس مع إخوانه من العلماء فهي تتمثل فتح المدارس الحرة، وإنشاء النوادي الإصلاحية في القطر الجزائري وفي فرنسا، وإصدار 4 جرائد متتالية، وهي: «السنة»، و«الشريعة»، و«الصراط» ثم «البصائر».

**- عمد ابن باديس إلى إنشاء النوادي الأدبية، والمجلات الثقافية والأدبية، كيف أسهمت في دفع حركة العلم والثقافة في الجزائر؟**

أسس ابن باديس جريدة «المنتقد» في عام 1925 لكنها لم تعمر بسبب تعطيلها من طرف سلطة الاحتلال التي أوقفتها بعد صدور عددها الثامن عشر. ولم يستسلم ابن باديس لهذا التعطيل المجحف فبادر بتأسيس جريدة أخرى سماها «الشهاب» التي استطاعت أن تقاوم كل الضغوطات الإدارية وتتجاوز العقبات المالية بتحويلها من جريدة أسبوعية إلى مجلة شهرية بداية من عام 1929. وتعرضت أيضا

صحف جمعية العلماء للتعطيل ولم تسلم منها إلا جريدة «البصائر» التي صدرت في سياق تاريخي مختلف في فرنسا وانعكس ذلك على مستعمرتها في الجزائر.

وكانت «الشهاب» للشيخ ابن باديس و«البصائر» لسان حال جمعية العلماء منابر للأقلام الحرة التي تدافع عن مقوّمات الشعب الجزائري، وتنتقد السياسة الاستعمارية الفرنسية، وتهاجم أذنابها الراضين بالخضوع والهيمنة الاستعمارية للحفاظ على مصالحهم الخاصة الضيّقة. وهكذا نشأ جيل كامل أبدع بكتاباته ونشر أفكاره وصرح بمواقفه.

حقا، لقد كانت صحافة ابن باديس وجمعية العلماء مدرسة في الإعلام الهادف والبناء للمجتمع الجزائري والهادم للمشروع الاستعماري الفرنسي.

وكانت النوادي تقوم بنفس الدور التوعوي إذ كانت تستقطب الشباب ليستمع إلى الخطاب الإصلاحي في قوالب متعددة: الأناشيد والمسرحيات والمحاضرات والدروس...الخ.

**- ألفت كتابا حول مسيرة ابن باديس بعنوان: «عبد بن باديس مسار وأفكار». ما هي الجوانب التي عالجتها في هذا الكتاب؟ وما هو الجديد الذي طرحته فيه عن العلامة رحمه الله؟**

لقد صدر الكتاب في طبعته الأولى في عام 2012، وصدرت طبعته الثانية المزيّدة في عام 2016. لقد رأيت أن الكتابات السابقة التي تناولت شخصية عبد الحميد بن باديس ركزت على ترجمة حياته واكتفت بعرض أعماله وآرائه ومواقفه. أما أفكاره فلم تدرس بعمق باستثناء آرائه المتعلقة بالتربية وبعض الجوانب الشرعية والأدبية.

أما الجوانب الفكرية التي تظهر فيها لمسات تجديدية لهذا العالم فإنها مهملة تقريبا من الباحثين. لذلك حرصت في كتابي على دراسة كتابات ابن باديس في الموضوعات الإنسانية المعاصرة، وقد اخترت القضايا التالية: التاريخ، والسياسة، والحرية، والعلم، والتقدم. ولم أكتف بمناقشة أطروحات ابن باديس حول هذه القضايا بل قارنتها قدر الإمكان ببعض معاصريه من العلماء المسلمين والغربيين.

**- طال ابن باديس تهم مزيفة، ودعاوى جائرة تختلف باختلاف الطاعنين به، فحبذا كلمة نوجهها لهؤلاء حتى يعرفوا قدر الرجل وتلزمهم الحجة في هذا؟**

الشيخ عبد الحميد بن باديس هو عنوان الجدية والتضحية والنزاهة. وهي قيم سامية أصبحت نادرة في عالمنا الراهن. كان ابن عصره بكل ما تحمله من معاني، تأثر بالأحداث والأشخاص في سياقات تاريخية محددة، وأثّر –هو- في وقائع عديدة خاصة في مجال التنوير والتحرير. ولا تزال أثاره مثمرة إلى يومنا لأن خطابه قام على الحجة والعلم وحب الوطن، وكل شيء قام على هذه الأسس سيظل خالدا في ذاكرة شعبه، وسيبقى حيا في حاضر مجتمعه.

وإذا أراد البعض أن يسقط الحاضر على الماضي ليقرأ الوقائع ليس كما وقعت لأسباب بينة وسياقات واضحة، ولكن ليقرأه كما يريد هو أن يقع، فهذا خلل في المنهج، فالتاريخ ليس رواية أدبية أو سيناريو تلفزيوني أو سينمائي نحمّله ما لا يطيق لدوافع إيديولوجية أو لأسباب فنية أو لأغراض تجارية...

*** *** ***

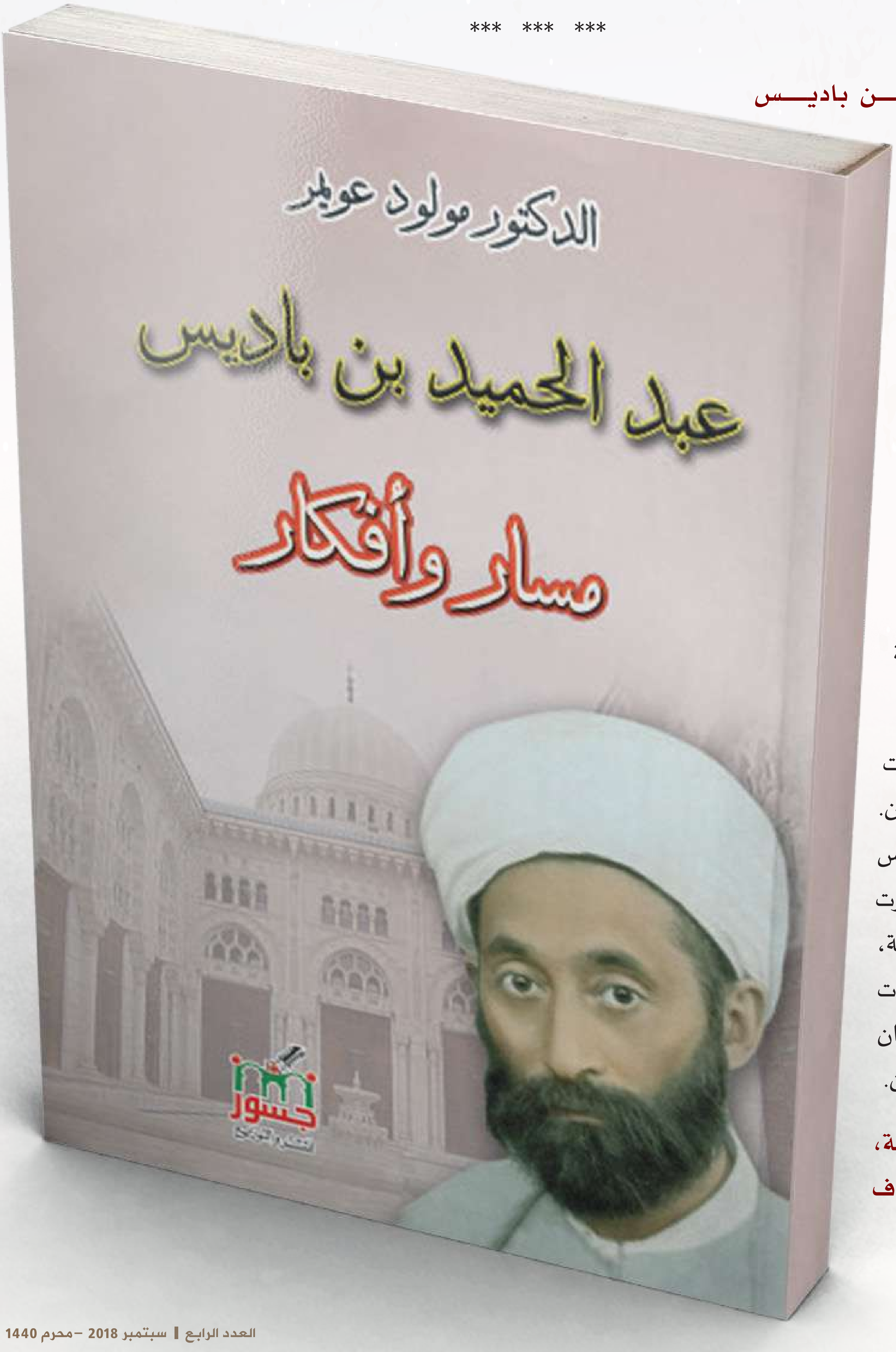

# المقالات

# عَبدُ الحَمِيد بنُ بَاديس وَجَمعِيّةُ العُلَمَاء

## شخصية عظيمة لمشروع أعظم

بقلم: رؤوف بن الجودي

### عبد الحميد الطفل
### العظماء يولدون صغارا

لم أصادف فيما قرأت عن حياة الإمام المصلح عبد الحميد بن باديس كلاما مفصّلا عن تنشئته العلمية الأولى، إلا نزرا يسيرا لا يشبع فضول الباحث النّهِم؛ حتى وقفتُ على كتاب صغير الحجم، عظيم الفائدة، تحت عنوان «عظماء في طفولتهم»، ترجم لبعض الشخصيات التي غيرت مجرى التاريخ من سياسيين، وأباطرة، وعلماء، ومصلحين، وأدباء كبار... مسلطا الضوء على موقف من مواقفهم في طور الطفولة.

فقد جاء في تضاعيف هذا المؤلف ذكر العلامة ابن باديس في موقف جريء وقع له في بداية تنشئته.. يقول د. منسي قنديل: «توقف المدرّسُ عن الشرح.. كان غاضبا محمرَّا الوجه.. صاح وهو يشير بأصبُعه:

- أنت أيّها الطالبُ في الصف الأخير.. قف..

(....) نهض عبد الحميد واقفا.. كان نحيفا، أسمر الوجه، واسع العينين، وصاح المدرّس مرة أخرى:

- ماذا تخفي داخل ثيابك؟

لم يقل عبد الحميد شيئا.

(....) أخذ المدرّسُ يفتّشُ ثيابه بسرعة وعصبية، ثمَّ هتف في انتصارٍ وهو يُخرج كتابا من بين طيَّاتِ ثيابه:

- آه.. أنت تخفي كتابا!

وأخذ يقلّب في صفحات الكتاب في سرعة، ثمَّ تغيَّر وجهه وأصبح أكثر غضبا، وأخذ يردِّد:

- إنَّه القرآن.. القرآن.. كنتُ أتوقَّعُ هذا.. أتوقَّعُه..»[1].

بسبب ذلك الموقف، استدعي والد عبد الحميد ليسوق له ناظر المدرسة الفرنسية خبر فصل ابنه نهائيا، ليس فقط من تلك المدرسة بل من كلِّ المدارس التي تتوزع على كل الأرض المغتصبة.. لم يزد الشيخ الجليل محمد المصطفى (والد عبد الحميد) أن أفحم ذلك الناظر المتغطرس: «لم آت لأعيده للمدرسة يا سيدي الناظر.. لقد جئتُ لأقول له أمامك إنَّه على حق، وأنا كفيل بأن أعِدّ مستقبله.. والآن أرجو أن تردَّ لابني كتابه»[2]!

لقد كان لهذه الحادثة دور جوهري في توجّه الطفل عبد الحميد نحو الدراسات الشرعية؛ حيث أتمَّ حفظ القرآن كاملا، وتلقى بعضا من علوم اللغة والشريعة على يد نفر من علماء قسنطينة آنذاك، على رأسهم شيخه حمدان الونيسي القسنطيني [ت1338هـ/1920م] الذي ترك في نفسيته الأثر الطيب، وكان له الفضل في توجيهه التوجيه السليم. وابتداءً من سنة 1903م سافر إلى تونس، والْتَحقَ بجامع الزيتونة، وكان من أبرز مشايخه هناك الشيخ محمد النخلي القيرواني [ت1342هـ/1923م]، والشيخ الإمام الطاهر بن عاشور [ت1393هـ/1973م].

سافر الإمام ابن باديس سنة 1913م إلى بلاد الحجاز لأداء منسك الحج، ثمَّ عرج على عواصم الشام ومصر قصد الالتقاء بعلمائها والاحتكاك بهم.. ومن الحوادث الجديرة بالذكر في هذه الفترة بالذات لقاؤه بالعلامة الأديب محمَّد البشير الإبراهيمي -وكان يومها شابا- الذي كان يقيم مع والديه في المدينة المنورة. يصف العلامة الإبراهيمي هذه

الحقبة المشرقة من حياة الإمامين بقوله: «كان من تدابير الأقدار الإلهية للجزائر، ومن مخبَّآت الغيوب لها، أن يرد عليَّ بعد استقراري في المدينة المنوَّرة سنة وبضعة أشهر أخي ورفيقي في الجهاد بعد ذلك، الشيخ عبد الحميد بن باديس، أعلم علماء الشمال الإفريقي -ولا أغالي- وباني النهضات العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية للجزائر (....). كنَّا نؤدي فريضة العشاء الأخيرة كل ليلة في المسجد النبوي، ونخرج إلى منزلي، فنسمر مع الشيخ ابن باديس منفردين إلى آخر الليل حين يفتح المسجد فندخل مع أول داخل لصلاة الصبح، ثمَّ نفترق إلى الليلة الثانية، إلى نهاية ثلاثة الأشهر التي أقامها بالمدينة المنورة.

كانت هذه الأسمار المتواصلة كلها تدبيرا للوسائل التي تنهض بها الجزائر، ووضع البرامج المفصَّلة لتلك النهضات الشاملة التي كانت كلها صورا ذهنية تتراءى في مخيلتنا، وصحبها من حسن النية وتوفيق الله ما حققها في الخارج بعد بضع عشرة سنة، وأشهد الله على أن تلك الليالي من سنة 1913 ميلادية هي التي وضعت فيها الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي لم تبرز للوجود إلا في سنة 1931»[3].

وقد أزمع ابن باديس الإقامة بالمدينة المنوَّرة، لولا نصيحة شيخه حسين أحمد الفيض أبادي[4] له قائلا: «ارجع إلى وطنك يا بني، فالعلماء هنا كثيرون، يُغنون عنك، ولكنهم في وطنك وفي مستوى وطنيتك وعلمك قليلون بسبب الهمجية الفرنسية التي تحارب الدين واللغة؛ وخدمة الإسلام في بلادك أجدر لك وأنفع من بقائك هنا»... فاقتنع بكلام شيخه وقفل عائدا إلى الجزائر معه عدة المعرفة، وهمة متقدة تطمح إلى إرساء قواعد التعليم بلغة الضاد، والدعوة إلى الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة، بعد كسر القيود النفسية التي طوَّقت بها السلطات الفرنسية أذهان هذا الشعب المغلوب قبل الأيادي والأقدام...

***

## تأسيس الجمعية والفجر الصادق

كان للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في مطلع القرن العشرين، دور هام في تعجيل ظهور النشاط الإصلاحي على نطاق واسع في العالم العربي، لا في الجزائر فحسب.. فبعدما أخمدت أيادي المستعمر الغاشم لهيب المقاومة الشعبية (التي عرفتها مناطق متفرقة من ربوع الجزائر)؛ جنحت النخبة المثقفة في الجزائر لتغيير السيف بالقلم طمعا في تغييرٍ ما للأوضاع المزرية التي كانت تُفرض على الشعب الجزائري قسرا، فتمخض عن هذا الانتقال ظهور أحزاب سياسية كان لها أثر بارز في الساحة السياسية -يومئذ- ونذكر على سبيل المثال: «حزب نجم شمال إفريقيا» بقيادة «مصالي الحاج» الذي بدأ كتنظيم نقابي، ليتطور إلى حزب، وبعد محاولات ناجحة في حلِّهِ، ظهر باسمٍ مغاير هو «حزب الشعب الجزائري».. هذا إلى جانب أحزابٍ أخرى؛ كانت رؤاها تتلخص في المطالبة ببعض الحقوق: كحقهم في التمثيل في البرلمان، وحقهم في التعليم، والتجنيس، والإدماج.. وانقسموا بين مؤيد ومعارض للاندماج في ثقافة المستعمر الغالب ولغته وتقاليده!

وسبق هذا التوقيت بسنة تقريبا، أن قامت الحكومة الاستعمارية باحتفالات على نطاق واسع بمناسبة مرور مئة سنة على احتلالها الجزائر.. يصف العلامة الإبراهيمي تلك الواقعة ويقول: «كانت سنة 1930 هي السنة التي تمَّ بتمامها قرن كامل على احتلال فرنسا الجزائر، فاحتفلت بتلك المناسبة احتفالا قدَّرت له ستة أشهر ببرنامج حافل مملوء بالمهرجانات ودعت إليه الدنيا كلها، فاستطعنا بدعايتنا السرّية أن نفسد عليها كثيرا من برامجها، فلم تدم الاحتفالات إلا شهرين، واستطعنا بدعايتنا العلنية أن نجمع الشعب الجزائري حولنا ونلفت أنظاره إلينا»[5]. وجدير بالذكر ما قاله أحد الساسة الكبار حين صرَّح بكل وقاحة وصفاقة في ذلك المهرجان: «لا تظنوا أن هذه المهرجانات من أجل بلوغنا مئة سنة في هذا الوطن، فقد أقام الرومان قبلنا فيه ثلاثة قرون، ومع ذلك خرجوا منه، ألا فلتعلموا أن مغزى هذه المهرجانات هو تشييع جنازة الإسلام بهذه الديار»[6]!

إن تدهور الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية كان سببا كافيا للإسراع بإنشاء صرح تتوحد فيه كلُّ جهود الإصلاح على مختلف الأصعدة، فزاد كل ذلك من عزم ابن باديس والإبراهيمي في وضع اللبنة الأولى لمشروعهما الأعظم. يصف العلامة الإبراهيمي أجواء إنشاء الجمعية قائلا: «دعَوْنا فقهاء الوطن كلهم، وكانت الدعوة التي وجهناها إليهم صادرة عن الأمة كلها، ليس فيها اسمي ولا اسم ابن باديس، لأن أولئك الفقهاء كانوا يخافوننا لما سبق لنا من الحملات الصادقة على جمودهم، (....) فاستجابوا جميعا للدعوة، واجتمعوا في يومها المقرر، ودام اجتماعنا في نادي الترقي بالجزائر أربعة أيام.. كانت من الأيام المشهودة في تاريخ الجزائر. ولما تراءت الوجوه وتعالت أصوات الحق أيقن أولئك الفقهاء أنّهم ما زالوا في دور التلمذة، وخضعوا خضوع

المسلم للحق، فأسلموا القيادة لنا، فانتخب المجلس الإداري من رجال أكفاء جمعتهم وحدة المشرب، ووحدة الفكرة، ووحدة المنازع الاجتماعية والسياسية، ووحدة المناهضة للاستعمار. وقد وكّل المجتمعون ترشيحهم إلينا فانتخبونا بالإجماع، وانتخبوا ابن باديس رئيسا، وكاتب هذه الأسطر وكيلا نائبا عنه، وأصبحت الجمعية حقيقة واقعة قانونية.. وجاء دور العمل»[7].

## أعمال الجمعية.. التعليم أولا!

شرع عبد الحميد من أول يوم رجع فيه إلى بلده الجزائر (كان ذلك قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى) في تنفيذ الخطوة الأولى من البرنامج الذي سطَّره رفقة أخيه في النضال البشير الإبراهيمي، ففتح صفوفا لتعليم العلم، كما خصَّصَ مسجدا جامعا من مساجد قسنطينة لإلقاء الدروس؛ فقصدته أسراب من طلبة العلم من كل فج حتى ضاقت بهم أسوار المدينة!

وجاء في مطلع مقال له بعنوان «صلاح التعليم أساس الإصلاح» قوله: «لن يصلح المسلمون حتَّى يصلح علماؤهم، فإنَّما العلماء من الأمة بمثابة القلب إذا صلُح صلُح الجسدُ كلَّه (....)، ولن يصلح العلماء إلا إذا صلُح تعليمهم، فالتعليم هو الذي يطبع المتعلم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته (....)، ولن يصلح هذا التعليم إلا إذا رجعنا به للتعليم النبوي في شكله وموضوعه، في مادته وصورته، فيما كان يعلِّم وفي صورة تعليمه..»[8].

وبعد إنشاء الجمعية سنة 1931م، تمَّ تعزيز قطاع التعليم، فأنشئت المدارس الابتدائية التي ضمَّت تلاميذ من كل أرجاء الجزائر، حيث وفرت لهم المأوى والمأكل والمشرب، وكانت أعدادهم تبلغ عشرات الآلاف.. وفي فترة متقدِّمة أنشئ المعهد الباديسي الثانوي الذي كان تحديا يحسب للجمعية آنذاك؛ وقد تخرّج فيه أكثر من ألف طالب!

* * *

كان كفاح الجمعية متوزعا على جهتين: جهة الاستعمار المادي المتمثل في الاستعمار الفرنسي بخيله ورجله، وجهة الاستعمار الروحي الذي يمثِّله مشايخ الطرقية المتغلغلون في أوساط الشعب، هؤلاء الذين تاجروا باسم الدين لقضاء مآرب فانية، وتعاونوا مع المستعمر ضد الجزائر!

لذا كان من سداد الرأي -كما يصرّح الإبراهيمي- أن تسبق الجمعية إلى محاربة هذا الاستعمار الثاني لكون أمره أهون، وأثره أمضى، فتُوقِف زحفه وتردَّ كيده في نحره، بالرجوع إلى الكتاب والسنَّة، كل ذلك بتصفية العقائد ممَّا شابها من تقاليد بالية، وخرافات زائفةٍ، وبدعٍ مُهلكةٍ، فلا يخفى على القارئ ما أصاب علماء الجمعية وأتباعهم من أذى مادي ومعنوي في سبيل دحض تلك العقائد الباطلة المضلِّلة، حتى وصل الأمر إلى محاولة اغتيال رئيس الجمعية، والحمد لله أنَّهم لم يفلحوا.. فثبَّط الله مخططهم الإجرامي.

ثمَّ لم تمضِ إلا سنة واحدة حتى تمَّ اجتماع جميع أعضاء الجمعية، لتخرج فيه بقرار توسيع نشاطها ليعمَّ كل أرض الوطن، وتعيين كبار علمائها في المناطق: منطقة الشرق ومقرُّها قسنطينة يشرف عليها الإمام ابن باديس، ومنطقة الجزائر العاصمة يشرف عليها الطيِّب العقبي، ومنطقة الشمال الوهراني ومقرّها تلمسان يشرف عليها الإبراهيمي.

***

## خاتمة

في 16 أفريل سنة 1931م، أسلم العلامة الإمام «عبد الحميد بن باديس» روحه إلى بارئها إثر سرطان أصاب أمعاءه تقاعس عن علاجه لاشتغاله بالدعوة والتعليم، وانتُخب أمير البيان «محمد البشير الإبراهيمي» بالإجماع خليفة له على رئاسة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ليسير فيها سيرة ابن باديس من قبلُ، مواصلا أداء المهمة العظيمة مهمة التحضير لـ«ثورة التحرير المظفرة».. ومنَّ الله على الأمة الجزائرية بالاستقلال لتتخذ من ذكرى وفاة الإمام يوما للعلم من كل سنة.

لقد كانت شخصية «ابن باديس» منذ سنواته الأولى، تُنبئ بقرب ظهور عَلَمٍ من أعلام الإصلاح والنهضة في العالم الإسلامي، ممَن كتب الله على أيديهم أن تستقلَّ الأمة الجزائرية من ربقة الاستعمار. لقد كانت أعمال هذا الرجل الثائر تمهيدا لثورة التحرير العظمى التي شاء الله أن يقبض روحه قبل أن يرى أولى شراراتها، وقبل أن يرى كيف وقف في وطيسها تلامذته رافعين شعار الجمعية الخالد «الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا»[9]...

---

1 - عظماء في طفولتهم، د. محمد منسي قنديل، ص61 و62، طبعة دار المعارف.
2- المرجع السابق، ص65.
3- آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج5، ص278، طبعة دار الغرب الإسلامي.
4- يقول عنه الشيخ الإبراهيمي: «...الشيخ العزيز الوزير التونسي، والشيخ حسين أحمد الفيض أبادي الهندي، فهما -والحق يقال- عالمان محقِّقان واسعا أفق الإدراك في علوم الحديث وفقه السنة (....) وأشهدُ أنِّي لم أرَ لهذين الشيخين نظيرا من علماء الإسلام إلى الآن». المرجع السابق، ج5، ص275.
5- المرجع السابق، ج5، ص280.
6- المرجع السابق، ج5، ص284.
7- المرجع السابق، ج5، ص281.
8 - آثار ابن باديس، مجلد2، ج1، ص284، طبعة الشركة الجزائرية.
9 - وإن جاز أن نضيف مقطعا رابعا، لقلنا: «وفرنسا عدونا، عدونا، عدونا...»!

# الثَّــــــوْرَةُ الحَقَّة

## أبو عبد الرحمن الجباري

كم يتكرر مشهد المتسلقين الذين يركبون موج الأحداث بما يخدم مصالحهم الأنانية، فتجدهم = يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا = ويتلونون لكل زمان بلونه، ويلبسون لكل حال لبوسها. وليتهم يكتفون بجني ثمار غيرهم، بل يعمدون إلى جنان الجيران بالإتلاف، حتى لا يبقى في الجوار غير ما سلبوه ظلما وعدوانا، فلا يطيب لهم مدح إلا بذم ضحاياهم، وما تنفق حسنتاهم في سوق الفخار إلا بغمط مآثر الأخيار.

ما بسطناه من أصحاب الركمجة المكيافيلية، هو دأب أولئك الذين احتكروا الوطنية باسم الشرعية الثورية، حتى أن بعض من كان يشر البطاطس والجزر للمجاهدين الحقيقيين، ثم يتمشش بقايا عظام موائدهم، صار زعيما يروي قصصا بطولاته الخرافية في اسقاط طائرة بنشابه، وتدمير دبابة ببصاقه... قصص تخجل من بجاحتها أساطير اليونان! وليتهم اكتفوا من البهتان بما كان، بل جاوزوه إلى طمس بطولات الأحرار من أبناء أمتنا الأبرار، ممن كانوا للثورة وقودا، وفي النضال أسودا، على رأسهم فقيد الأمة عبد الحميد بن باديس، ثم جمعية البزل القناعيس.

سيقول قائلهم: ما ابن باديس وما جمعية المتاعيس؟ إنما كانوا منومين لجموع المناضلين، وللاستعمار مداهنين غير منافرين، متقوقعين في كتاتيبهم، متلفعين بأزرهم وعمائمهم، حتى ثار شباب حزب الشعب فحرروا البلاد بالجهاد والجلاد. فنقول: فإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تتعامى وتتغابى القلوب، وداء الجهل أردى من كان قبلكم وكانوا أشد منكم قوة. ذلك أن الجهاد الذي تتبجحون به ما عرفتموه إلا بين يدي من تنكبتم صراطهم، وما انتصر الشعب الا بكلمة =الله أكبر= التي لقنكم مبناها ومعناها من بطرتم نعماءهم. وما دمتم قد رسبتم في مدرسة خَيْرِ جمعية أخرجت للناس، فهاكم دروسا استدراكية في فن التحضير لثورة التحرير بالروح والدم، التي ما كانت لتوجد لولا ثورة التنوير بالدواة والقلم.

إن هذا الاستكثار من هؤلاء، وذلك الاستقلال من أولئك هو ثمرة «الثورة الثقافية».

بدأت البشرية مسيرة الاستخلاف في الأرض بثورة ثقافية مطلعها «وعلم آدم الاسماء كلها»، واستأنف نوح الاستخلاف بأخرى عنوانها «رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم»، واحتج هود على عاد بنعمة «واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون»، ثم أتى موسى الكليم بعلم التوراة «فيها هدى ونور يحكم بها النبيئون»، ويوسف الذي مكن الله له في الأرض ببشرى «ولنعلمه من تأويل الأحاديث» التي تأكدت حين قال لملك مصر «إني حفيظ عليم»، إلى أن جاء الإسلام المُكمل والمصدق لما سبقه بالثورة الثقافية الكبرى «اقرأ باسم ربك».

ولا يظنن أحد أن ما مَثَّلنا به عن «حتمية استهلال التغيير والتحرير بأساس التنوير» أن ذلك محصور في الجانب الديني وحسب، إنما قدمنا بتلك النماذج السماوية لسابقتها الزمانية وعظمتها الرسالية. واستكمالا للمشهد الاستدلالي نقول: ما تأسست الدولة الرستمية إلا نتيجة الثورة الفكرية الخارجية، وبعدها الدولة الموحدية قاد زمامها الروحي الثقافي محمد ابن تومرت بعقيدته الأشعرية وادعاء المهدوية. أما من غير المسلمين فقد انبعث تنين الحضارة الصينية المعاصرة نِتاجا للثورة الثقافية الشيوعية لماوتسي تونغ مع كتابه الأحمر، تقليدا للثورة البلشفية الروسية التي كان مبدؤها الحراك الثقافي الاشتراكي لمايكل إنجلز وكارل ماركس. وكذلك التحمت القوميات الجرمانية المتنافرة على يد التحضير الثقافي التوعوي لبسمارك طيلة ثلاثين سنة، ومن قبله اشتعلت الثورة الفرنسية نتيجة الزخم الثقافي لفلاسفة العقد الاجتماعي والديمقراطية الجمهورية بقلم مونتيسكيو وأضرابه. بل إن أدولف هتلر ما كان ليحقق الانطلاقة الفريدة للأمة الألمانية لولا ثورته الثقافية التي حارب بموجبها الآداب الانحلالية و المعاملات الربوية اللتان كانتا تحت الوصاية اليهودية (منذ 1850)، معيدا الاعتبار للهوية الألمانية بأبعادها الدينية و اللغوية و التاريخية في مدة قياسية ما بين 1933 إلى 1937.

بعد هذه التطواف الزماني والمكاني حول النماذج المتكررة والناجحة لقوامة الثورة الثقافية على الثورة الحديدية، لنَحُطَّ الرحال بجزائرنا المكلومة في ثقافتها، التي كانت سائرة على نحو ذلك النهج القويم حينا من الدهر على يد ابن باديس؛ مدافعة للتجهيل الاستدماري الممنهج للجزائريين الذي وصفه جون بول سارتر في كتابه «عارنا في الجزائر» قائلا: «أردنا ان نجعل إخواننا المسلمين شعبا من الاميين فبلغ عدد الاميين اليوم 80 بالمائة»[1]. لذلك استعد ابن باديس لتفجير الثورة المسلحة وفق المنهج العلمي السماوي المضمون النجاح، بشهادة التاريخ الأرضي الدي استقرأنا بعضه أعلاه.

1- عبد العزيز شرف- المقاومة في الادب الجزائري المعاصر- دار الجيل بيروت- ص35.

ليعلم الشائع للعلماء =أن شباب الجزائر مطلع القرن العشرين كانوا يستيقضون عند الزوال، ثم يهومون بقية يومهم في أزقة المدن بحثا عن العمالة الرخيصة مقابل فرنكات معدودة، التي يصرفونها ليلا في الخمر والمجون، وهكذا دواليك. أما شباب الأرياف فكانوا تحت قهرمان الكولون تجويعا وتسخيرا وتحقيرا[1]. فلما عاين الفهامة ابن باديس هذا الوضع البئيس، أدرك أن الانتصار على عدونا لا يتأتى إلا بعد الانتصار على أنفسنا، وأن هذا الجيل المنهزم للجهل ودواعي البطالة، هو أضر على أمته المأسورة في يد الاستعمار من الاستعمار نفسه! إذ كيف سيدافع هذا الشباب الضائع عن بلد يجهل تاريخه، وعن دين لا يعيشه في سلوكه، وعن هوية ينتسب إليها اسما لا رسما؟

فما كان منه إلا أن شمّر عن ساعد الجد، وانطلق في مسيرة الإصلاح في 1913 بعزيمة باديسية جبارة، فسد جحور الجهالة، ورفع منار الديانة، وغرس نبات الوطنية، «والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه»، إلى أن أينعت ثماره بعد خمس سنوات ألفا من الشاب اللبيب الأريب، الذين بثهم في أرجاء البلاد ليكونوا جنود القلم والدواة. فلا غرو أنُ اختير ابن باديس رئيسا لجمعية العلماء بلا منافس في 1931، لأن صيته قد بلغ الآفاق، وتلاميذه قد صاروا سفراء العلم والأخلاق.

فما راع المستعمر إلا عودة الحياة إلى شعب كان في حكم الموات، وأيقن أن مآل طغيانه إلى زوال، إذ أن جذوة العلم إذا اشتعلت في العقول فلن تطفئها مياه البحار، والإيمان إذا أشربَتْه القلوبُ فلن يزيله الحديد ولا النار. فسارعت إدارة الاستعمار إلى مقابلة العلم بالجهل[2]: تارة بالتضييق على أساتذة ومدارس الجمعية، وأخرى بوقف جرائها التوعوية، وثالثة بتنفير الناس عنها عبر الدعاية الكاذبة من بعض شيوخ الصوفية. لكن جهالتهم آلت إلى نقيض قصدهم «يريدون ليطفؤوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون»، إذ زاد الشباب تمسكا بعلماء الجمعية حين لمسوا فيهم الصدق في القول والعمل، فهذا آيت حمودة عميروش يلتحق بخلية الجمعية بباريس مع الربيع بوشامة (تلميذ بن باديس)، ومصطفى بن بولعيد يتتلمذ على يد الشيخ عمر دردور وغيرهما كثير، ممن كانوا فيما بعد وقود ثورة التحرير على مختلف مستوياتها من قادة ومرؤوسين.

وحين أحس العلامة أن أبناءه قد أعدوا العدة، أعلن في المقربين أن الانتقال للجلاد الحديدي قد آن أوانه، وحل زمانه، محددا تاريخ انطلاق دوي الرصاص بيوم التحاق الطليان بالألمان ضد الفرنسيس[3]، مع كامل التحضيرات العسكرية من تسليح وتمويل معتمدا على رجال الأوراس ابتداء، إلا أن الأجل قد عاجل فارسنا العلامة، فاخترمته المنية قبل التاريخ المحدد بأشهر قلائل[4].

إثروفاة رمز الإصلاح، انهالت الإدراة الاستدمارية على جمعية العلماء بالتنكيل، ونفي رئيسها الجديد الابراهيمي إلى عين وسارة لثلاث سنوات، وصودرت صحفها ومواردها. الا أن هذا الإرهاب القرنسي جاء متأخرا، لان القاعدة الشبابية المتنورة بالعلم والمتسلحة بالايمان كانت من الاتساع والقوة بما لا يمكنه إزالته بتلك المحاولات الجبانة لجلادي فرنسا العجوز، التي لا تزال إذاك تسير جزائر القرن العشرين بمنطق القرون الوسطى الجاهلية.

ثم جاء النصر المبين من العدل الحكيم لمجاهدينا المخلصين بعد أكبر ملحمة جهادية ضد آخر حملة صليبية في القرن العشرين. إلا أن هذا النصر قد عكّر صفوه دَخَنُ التنكر لأبناء وعلماء الجمعية الذين صاروا متهمين بالتخاذل عن دعم الثورة! ولولا أننا قد فصلنا في مقال لنا سابق عن تهافت هذا البهتان لبسطنا الرد عنه، لكن ما يعنينا ههنا هو الخطأ الجسيم الذي وقع فيه من تجاهلوا (أو جهلوا) أولوية التربية والتعليم قبل البناء والتمْدين. فخضنا غمار الثورة الصناعية والزراعية، ولمَّا نستكمل بعدُ الثورة الثقافية التي ابتدأتها الجمعية قبل الاستقلال بعشرات السنين، ثم جُمِّدت بعده إلى غير حين!

إن من يحصرون الاستقلال كثمرة لجهاد عميروش وبن بولعيد وبن مهيدي جاحدين لجدارة المعلم بن باديس في التحرير، سيخجلون من قول إن فارس والروم هزمتهما ثورة خالد بن الوليد وأبي بكر الصديق وأن النبي صلى الله عليه وسلم لا علاقة له بالنصر!

إن أي طاقة تنظيرية علمية لابد لها من ساعد عسكري قوي ليكتمل النصر ويتحقق المطلوب، فهذا ابن تومرت المنظر قد وجد عبد المؤمن بن علي المنفذ، وعبد الله بن ياسين سانده يحي بن عمر اللمتوني ثم ابن تاشفين، ومحمد بن عبد الوهاب نصره الأمير سعود، إلا أن ابن باديس خاضها وحيدا ولم يجد من يكمله في ميدان السنان، ولطالما قلت = لو تزامن ابن باديس وعبد القادر لكان عبور الفرنسيس كسحابة صيف على أرض الجزائر، لكن قدر الله وما شاء فعل. ولا نقصد بالثورة التنويرية ما يتصل بالعلوم الرياضية والتقنية، بل نرثي التربية الهوياتية الأَصَالية التي تزرع في الشباب الاعتزاز، ومن ثَمَّ الانتماء إلى أمته، من خلال التشبع بمقوماتها اللغوية والدينية والتاريخية. فإن أبينا، فلنصبر على مُرِّ مَشَاهد الحيتان التي تنهش أجساد أبنائنا الهاربين من بلدهم على قوارب الموت والهوان، وآخرون يُقبِّلون يد الرئيس الفرنسي حين يجوب شوارع العاصمة كملك بصولجان، وأولئك المغرر بهم من ضحايا ثقافة التكفير والتفجير، أو ثقافة الاستغراب وموت الضمير! أما من يعتذر لهؤلاء أنهم يسعون للاسترزاق فنجيبه: أنَّ الحرة تجوع ولا تأكل بثديها، وقلة ذات اليد أهون من قلة العقل والدين، وقد نصر الله أجدادنا وما أكلوا ثريدا، وما لبسوا جديدا، وما خافوا نارا ولا حديدا، لا لشيء إلا أنهم ملكوا الدنيا وما ملكتهم حين قالوا لها «البطن خاوي، والأنف عالي». قد علّمنا التاريخ كما أسلفنا أنّ تغييب الثورة الثقافية لا يُرسي للحضارة أساسا، ولا يرفع للأمة رأسا، ومن لم يتعظ بنفسه ولا بغيره، فلا اتَّعظ!.

---

-2 أحمد مريوش-الطيب العقبي ودوره في الحركة الوطنية الجزائرية - ص115- دارهومة الجزائر ط2007.

3- ليس الجهل هنا هو نقيض العلم، بل هو النزق والطيش والظلم، قال عمرو بن كلثوم: (ألا يجهلن أحد علينا...فنجهل فوق جهل الجاهلينا).

3 - الشيخ احمد حماني في مقال له نقلا عن حمزة بوكوشة، مجلة الرسالة، ربيع الأول 1401 هـ. العدد الرابع.

4 - أعلنت إيطاليا الحرب على فرنسا في 10 جوان 1940، 55 يوما بعد وفاة ابن باديس.

قال العلامة عبد الحيد بن باديس:

«أيها الشعب الجزائري! أيها الشعب المسلم! أيها الشعب العربي الأبي! حذار من الذين يُمَنُّونك ويخدعونك، حذار من الذين ينوّمونك ويخدّرونك، حذار من الذين يأتونك بوحي من غير نفسك وضميرك، ومِنْ غيرِ تاريخك وقوميتك، ومن غيرِ دينِك وملّتِك وأبطالِ دينِك وملّتِك.

استوحِ الإسلام ثم استوح تاريخك ثم استوح قلبك. اعتمد على الله ثم على نفسك، وسلام الله عليك»

عبد الحميد بن باديس.
الشهاب : 1356 هـ/ أوت 1937م.

# الاِصْطفَاءُ الإلَهيُّ في شَخْصيَّة عَبْدُ الحَمِيْد بنُ بَادِيْس

د.سمير أبيش

لقد لعبت شخصية ابن باديس دورا كبيرا في تاريخ الحركة الإصلاحية الجزائرية، واستطاعت بفضل عبقرية فريدة أن تكون عاملا حاسما داخل المشهد الثقافي الذي عرفته الجزائر خلال عقد الثلاثينيات، وذلك إلى الحد الذي جعل العلامة أبو القاسم سعد الله يقول:(أنه إذا تكلمنا عن جمعية العلماء خلال الثلاثينيات فالكلام في الواقع عن ابن باديس)، هذه الشخصية التي عاشت فقط للجزائر كما ذكر ذلك الأستاذ العربي التبسي أثناء تأبينه لها، مخاطبا الأمة الجزائرية( يا أيتها الأمة الجزائرية لقد كان الشيخ ابن باديس هو الجزائر فلتجتهد الجزائر الآن أن تكون هي الشيخ ابن باديس)[1]ولقد أظهرت شخصية ابن باديس تفوقا وتفردا منذ حداثة عهدها، وكأن الله سخرها للجزائر في هذا الظرف العصيب الذي لا يقوى عليه إلاّ العظام، ففي شهادة لأحد العلماء التونسيين ذكر أن ابن باديس خلال دراسته بجامع الزيتونة كان طالبا متفوقا يعد من النابغين والمجتهدين بين جيله على صغر سنه، إذ كان من النادر أن يتصدر قائمة الناجحين من طلبة الزيتونة غير سلالة مشايخ الزيتونة من أبناء سكان العاصمة فضلا على أن يكون طليعتها طالبا جزائريا مهاجرا، إلاّ أن ابن باديس عكس بتفوقه هذا التقليد المجحف وتفرد سنة 1911 برأس قائمة المتخرجين من دفعته وكان ترتيبه الأول بين زملائه كما نشرت الصحافة التونسية الصادرة.[2]إن هذه المواهب والخصال جعلت منه صاحب تأثير عميق في الأوساط المثقفة ( ببلاغة جدلية) حيث كان يُعتبر للجزائريين لا معلما تقليديا وعقلانيا فحسب، بل أضحى على حسب تعبير شارل أندري جوليان( مرشد الأمة الكبير إلى الطريق المستقيم)[3]، وعدّه الدكتور محمود قاسم مؤسس الحركة الإصلاحية في الجزائر بلا منازع وأنه الرجل الذي ضحّ بحياته ووضع كل إمكانياته الجسمية والفكرية في سبيل إصلاح المجتمع الإسلامي في هذا القطر، في حين أن المفكر مالك بن نبي يعتبر ظهور شخصية ابن باديس في تلك الفترة من تاريخ الجزائر بمعجزة البعث، فبعدما ذكر الوضعية الاجتماعية التي كانت توجد عليها الجزائر بيّن(بأن شعاع الفجر قد بدأ ينساب بين نجوم الليل من قمة الجبل، فلم يلبث أن محت آياته الظلمة من سماء الجزائر، فحوالي 1922 بدأت في الأرض هيمنة وحركة وكان ذلك إعلانا لنهار جديد وبعثا لحياة جديدة فكأنما هذه الأصوات استمدت من صوت جمال الدين قوتها الباعثة بل كأنها صدى لصوته البعيد، لقد بدأت معجزة البعث تتدفق من كلمات(ابن باديس) فكانت ساعة اليقظة وبدأ الشعب المخدّر يتحرك.[4]بهذه الخصائص التي يتحدّث عنها من عاصره ومن خبر أغوار الفكر الإسلامي والنهضة العربية، استطاع ابن باديس أن يترك له بصمة وتأثيرا واضحا ليس في تاريخ الجزائر في حسب وإنما في تاريخ الإصلاح الإنساني، لا بوصفه مصلحا فقط ولا فيلسوفا ولا فقيها وإنما بوصفه كل ذلك، من خلال أفكاره التنويرية والتجديدية والإحيائية.

## أولا – في معنى الاصطفاء الإلهي

إن الله سبحانه وتعالى يصطفي من بين عباده أناسا مخصوصين يختارهم لأداء مهمات معينة، فيهيئ لهم مقومات النجاح وييسر لهم طرق وسبل الوصول، ويصد عنهم عقبات ومكائد الخاسرين، فنجد أن ظل الله يرعاهم أين ما حلو وارتحلوا في كلامهم وأفعالهم، وأشد ما يظهر ذلك في التثبيت لهم في أوقات المبادئ والأزمات، ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم خير مقال وأصدق برهان، وكيف أن اختيار الله له كان حاميا له في وجه جميع الأعداء والعقبات، سواء بتسخير من يعينوه على دعوته من الرجال والأسرة أو التثبيت له بالحجة والبرهان، والاصطفاء هذا من مشيئة الله وحده قال تعالى ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥ ﴾ سورة الحج، وقال تعالى ﴿ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٤٧ ﴾ سورة البقرة، ولا عجب إذا أن نجد رجالا توفرت فيهم صفات هؤلاء الذين اصطفاهم الله ولكنهم لم يسلكوا طريقهم وذلك ليس إلاّ لأن الله ما كان مختارا لهم.

## ثانيا: مظاهر الاصطفاء الإلهي في شخصية الإمام عبد الحميد ابن باديس:

إن الحديث عن شخصية ابن باديس وما حققته من نجاحات في تاريخ الجزائر لا يمكن أن يعبّر عنه ويفسّر إلا في دائرة سنن الاصطفاء الإلهي والاختيار الرباني الذي كفلها الله لفئة من عباده المخصوصين، وأن الله اختار ابن باديس من بين أقرانه للقيام بما قام به، ولذلك نجد من خلال الدراسة لهذه الشخصية أن مظاهر الاصطفاء والاختيار الإلهي لها ظهر جليا منذ الصغر وكيف أن الله اختار له الأسرة التي تعينه على ذلك، ثم هيأ له الرفقة الصالحة العاملة(الشيخ الإبراهيمي والتبسي والعقبي وغيرهم) وآزره بطلبة وأتباع ينشرون فكره(على مرحوم والفضيل الورتلاني والميلي وغيرهم).

كما يظهر الاصطفاء لابن باديس في كونه واحد من أولئك الذين بشّر المصطفى صلى الله عليه وسلم في أن الله كفل حفظ دينه من خلال جعلهم يظهرون في هذه الأمة على كل رأس مائة سنة ينشرون فيها العلم ويجددون لها دينها على عهد المصطفى صلى الله عليه وسلم، وإن العديد من العلماء متفقون على أن ابن باديس هو واحد من هؤلاء المجددين الذي اصطفاهم الله لتجديد هذا الدين كما ذكر ذلك صلى الله عليه وسلم بأن الله يبعث على كل مائة عام من يجدد لها أمر دينها، وهو ما يجعلنا نقول أن ظهور شخصية ابن باديس في تاريخ الجزائر ليس فقط نتيجة لظهور عوامل ثقافية أو سياسية أو دينية فقط كما بسط ذلك العديد من تناولوا شخصية ابن باديس وإنما هو بالأساس اصطفاء إلهي واختيار رباني لابن باديس.

ومن مظاهر الاصطفاء الرباني لاين باديس هي تلك العوامل التي نرى أن الله سخّرها له حتى تعينه على دعوته، وتختلف من عوامل شخصية وأسرية واجتماعية وغيرها نذكر منها:

- الاصطفاء الأسري: حيث أن الله اختار له الأسرة العريقة والصالحة التي تمنحه الجو المناسب للنمو المتكامل والسليم، وإذا أردنا أن نعرف أهمية المناخ الأسري فما علينا إلا العودة إلى سيرته صلى الله عليه وسلم وكيف كان للبيت الذي نشأ فيه دورا في دعوته فيما بعد، حيث كان للبيئة العائلية التي عاش فيها ابن باديس تأثيرا أساسيا في فكره الأخلاقي بالتربية والتعليم والرعاية[5]، وهو التأثير الذي أوضحه في مناسبة الاحتفال بختم تفسير القرآن الذي نظّمه أصحابه وتلاميذه، بقوله لهم: (إن الفضل يرجع أولا إلى والدي الذي رباني تربية صالحة ووجني وجهة صالحة ورضي لي العلم طريقا أتبعها ومشربا أرده وقاتني وأعاشني وبراني كالسهم وراشني وحماني من المكاره صغيرا وكبيرا وكفاني كلف الحياة، فلأشكرنه بلساني ولسانكم ما وسعني الشكر)[6].

إن هذه الإعانة والكفالة والمكانة الاجتماعية لأسرة ابن باديس جعلته يتحرر من الحاجة للتوظيف لدى السلطة الفرنسية[7]، وهو التوظيف الذي كان بالإمكان أن يجعله تحت القيود والضغوط الفرنسية التي ستكون حائلا بينه وبين حرية التعبير عن مواقفه وآرائه.

- تيسير طريق العلم له: فإنه من يرد الله به خيرا يفقه في الدين كما جاء في معنى الحديث والفقه هنا بمعنى الفهم ويكون ذلك بتيسير طرق الوصول إلى العلم ومصادره ومنابعه الصافية كالعلماء الراسخين الذين يكسبونه العلم وأدب العلم، إذ يرجع الكثير من الباحثين الفضل لأفكار ابن باديس وبشكل مباشر لأولئك الأساتذة الأوائل الذين تلقى العلم على أيديهم وغالبا ما يذكر في كتاباته مشيدا بأفضالهم العلمية والإصلاحية له[8]، ومن هؤلاء الأساتذة بالأخص هنالك من أثّر في تكوينه بشكل مباشر وأستاذ وإن لم يتتلمذ عليه ابن باديس إلاّ أنه مسّ تأثير أفكاره وهو الشيخ عبد القادر المجاوي: هذا العالم الذي ابتدأ التعليم وعمره نحو اثنين وعشرين عاما يعظ الناس ويرشدهم أينما اجتمع بهم ينفخ فيهم روحه ويدعوهم للنهوض والاعتناء بالتربية والتعليم[9]، ويهاجم الجمود والتعصب في الدين ويندد بالطرقيين الضالين الذين يستخدمهم الاستعمار لتشويه سمعة الإسلام وتخدير المسلمين، ولقد كان من بين أبرز تلاميذ الشيخ عبد القادر المجاوي الأستاذ حمدان لونيسي الذي سيصبح شيخا للإمام ابن باديس وأحد أكثر المؤثرين في شخصيته، أما الأساتذة الآخرون فهم بالأخص الشيخ حمدان لونيسي والشيخ النخعي الذي قال عنهما ابن باديس( بأنه كان لهما الأثر البليغ في تربيتي وفي حياتي العلمية وهما من مشايخي اللذان تجاوزا بي حد التعليم المعهود من أمثالهما مع أمثالي إلى التربية والتثقيف والأخذ بيدي إلى الغايات المثلى في الحياة)، وكتب عن تأثير العلامة النخعي عليه يوم دعي لإلقاء محاضرة بعنوان بماذا تنهض الأمة نهضة دينية فأخبرهم أنه ليس خريج أحد الجامعات أو المعاهد الفرنسية ولكنه طالب قرآن حفظته في أول بلوغي وأنا لا أفهم لأني ما سمعت يوما من أحد أن القرآن يقرأ للفهم ولا أكتمكم إني أخذت شهادتي من جامعة الزيتونة في العشرين من عمري وأنا لا أعرف للقرآن أنه كتاب حياة وكتاب نهضة وكتاب مدنية وعمران وكتاب هداية للسعادتين، لأنني ما سمعت ذلك من شيوخي عليهم الرحمة والكرامة، وإنما بدأت أسمع هذا يوم جلست إلى العلامة الأستاذ محمد النخعي ) كما أن هنالك العلامة بشير صفر الذي كتب ابن باديس في ذكرى وفاته عن مدى تأثيره عليه قائلا: (وأنا شخصيا أصرح بأن كراريس البشير صفر الصغيرة الحجم الغزيرة العلم هي التي كان لها الفضل في اطلاعي على تاريخ أمتي وقومي والتي زرعت في صدري هذه الروح التي انتهت بي اليوم لأن أكون جنديا من جنود الجزائر).

1- مؤازرته بمجموعة من الرجال المخلصين الذين يساندونه في دعوته: وتعد هذه الميزة من أكثر الميزات التي يسخّرها الله لأولئك الذين يرتضيهم للقيام بأعمال عظام، ورأينا كيف آزر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بأولئك الصحابة في دعوته وأخبرنا الله عن حواري عيسى عليه السلام ومؤمن آل فرعون في دعوة موسى عليه السلام وغيرها من الشواهد. حيث أنه كان لعودة أولئك الأفواج من العلماء الذين تكونوا في المشرق العربي وتأثروا بالأصوات التي كانت تدعوا إلى نهوض

المجتمعات العربية والإسلامية فتقاطعت أمالهم وتطلعاتهم مع الأفكار الذي كان ابن باديس يستعد للقيام بها، ما جعلهم يؤازرونه في دعوته ويشكلون له دعما كبيرا ومن بين أبرز هؤلاء الفاعلين نجد:

الشيخ الطيب العقبي: الذي عاد إلى الجزائر في ريعان شبابه في 3 مارس 1920 عن عمر يناهز إحدى وثلاثين سنة، ولقد كان رجوعه إلى الجزائر بعد أن تربّي في بيئة انتشرت فيها الحركة الوهابية وتأثّر فيها بأنصار الجامعة الإسلامية التي كانت تدعوا إلى إيقاظ الضمير الإسلامي وإعادة الاعتبار إلى الخلافة الإسلامية وقد عاش العقبي قريبا من تلك الإرهاصات وأخذ عنها أفكاره الإصلاحية، كما كانت له اتصالات عديدة مع دعاة النهضة العربية الإسلامية أبرزهم الأمير شكيب أرسلان.

ولقد كان العقبي صاحب نشاط كبير في المشرق العربي حيث رأس تحرير أول جريدة عربية في مكة وهي جريدة القبلة وأشرف بالموازاة مع ذلك على المطبعة الأميرية، كما كان له شرف الكتابة في جريدة أم القرى أول جريدة رسمية في المملكة العربية السعودية. فعودة الشيخ الطيب العقبي بهذا الزخم النضالي في ميادين الفكر والإصلاح والدعوة والعمل الصحفي جعل منه رافدا من أهم روافد الحياة الفكرية والنهضوية التي ستؤازر الإمام ابن باديس في دعوته التي كان قد بدأها في مساجد قسنطينة وتجعل منه الرقم الثاني الأكثر تأثيرا في المشهد الجزائري بعد ابن باديس.

الشيخ العربي التبسي: وقد عاد إلى الجزائر سنة 1927 بعدما حصل على العالمية من جامعة الأزهر الشريف، وكان عمره اثنين وثلاثين سنة في عهد القوة والازدهار وفي زمن النضوج بعد أن تزوّد بالعلم الواسع والفكر المتحرر الذي قوامه التجديد الواعي والعزم على الإصلاح الجذري بالثورة ضد الجمود والجهل. كما شهدت الجزائر أيضا خلال هذه الفترة عودة الأفواج الأولى من تلامذة ابن باديس الذين بعث بهم إلى جامع الزيتونة في تونس مثل الشيخ مبارك الميلي ليشكلوا لأستاذهم الدّعم اللازم في معركة البناء والتشيد. وجود أتباع له ينشرون فكره ودعوته: حيث نجد أن هذه الخاصية كثيرا ما كانت السبب في انتشار فكر ما على حساب فكر آخر، فإذا أراد الله لأحد عباده أن يستمر علمه جعل له أتباعا ينشرون دعوته من بعده، ولنا في أصحاب المذاهب الإسلامية الأربعة خير دليل، فعلماء الفقه متفقون على أن أصحاب المذاهب الأربعة لم يكونوا وحدهم فقط وإنما كان هناك من هو في درجتهم إلا أن هؤلاء كان لهم أتباع نشروا مذاهبهم عكس الآخرين، ولذلك وجدنا الإمام الشافعي يقول عن الليث وهو تابعي بلغ درجة مالك في الاجتهاد، الليث أفقه من مالك إلاّ أن أصحابه ضيعوه، أي أن تلاميذه لم ينشروا دعوته.

ولقد آزر الله ابن باديس بطلبة عملوا على تبليغ دعوته ونشر فكره الإصلاحي بين الجزائريين، حيث أنّ الجهود التربوية التي قام بها ابن باديس مند عودته من الزيتونة في سبيل نشر العلم قد أثمرت جيلا شكّل فيما بعد النواة الأساسية لحركة الإصلاح التي ستضطلع بها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بقيادة ابن باديس، وقد أشار أحد الباحثين إلى ذلك بقوله: (بعد عشر سنوات من التدريس أثمرت جهوده في تكوين شباب متشبع بقيم الحضارة الإسلامية ساعد في نشر دعوته الإصلاحية في كافة التراب الجزائري)()، وكان من بين أبرز هؤلاء الطلبة مبارك الميلي والفضيل الورتلاني وعلي مرحوم.

القبول الاجتماعي لابن باديس: يعتبر القبول الاجتماعي الذي كان يحضا به ابن باديس داخل مختلف الأوساط الجزائرية، مثقفيها وعامتها وحتى داخل أولئك الذين كانوا يختلفون معه من أتباع الطرق الصوفية وأصحاب الإدارة الفرنسية من أبرز مظاهر الاصطفاء الإلهي والاختيار الرباني لشخص ابن باديس، حيث كان ابن باديس يجمع الجزائريين ويوحدهم ويلقى ترحيبا كبيرا أينما حل وارتحل ومطلوبا من جميع أفراد المجتمع من أجل وعظهم والصلح بينهم ولا أدل على ذلك ما كتب في الجزء الرابع من آثاره التي أرّخت في أحد أجزائها لتلك الرحلات التي كان يجوب بها مختلف مناطق الوطن الجزائري وكيف كان يحضا بذلك القبول من طرف أبناء وطنه وكيف كانوا متحمسين لدعوته ويسارعون في الانضمام إلى جمعيته والعمل على إعانته ماديا ومعنويا ونعتقد جازمين أنها كانت من أبرز عوامل نجاح التجربة الإصلاحية لابن باديس.

## خاتمة

إن الله إذا أحب عبدا استعمله، وإننا نعتقد جازمين أن الله أحب ابن باديس رحمه الله فاختاره من بين الكثيرين من أقرانه واصطفاء بمشيئته ليكون أحد جنوده في دار من دور الإسلام، يجدد لها أمر دينها ويحي فيها سنة نبيها صلى الله عليه وسلم، بعد الذي لحقها من مكائد أهل الدار قبل الأعداء من الطرقيين وأحقاد الصليبين من الفرنسيين، ولقد آزر الله ابن باديس للقيام بهذه المهمة بالمنبت الطيب والرفقة الصالحة والتثبيت على الحق وقوة الكلمة ووحدة الصف وصدق النية وسلامة الوسيلة ووضوح الهدف. فكان من آثار ذلك ثمار طيبة ظهرت في تلك الجحافل من طلبة العلم النافعين لوطنهم المتمسكين بقيمه وثقافته والمنافحين عن شخصيته وذاتيه، فجز الله عنّا الإمام عبد الحميد ابن باديس خير الجزاء وحشرنا معه ومع نبينا صلى الله عليه وسلم في جنته آمين يا رب العالمين.

***

# مجتمع الطّهر والعفاف

## في فكر ابن باديس وكتاباته

سمير سمراد

لم ينقطع الإمام عبد الحميد ابن باديس إلى الإصلاح الديني، لِيُغفلَ بذلكَ بقية ميادين الإصلاح -وإن كانَ الدِّينُ هو أساسٌ لكلِّ إصلاحٍ-، بل طَرَقَ كلَّ بابٍ من أبوابِهِ، وكانت له فيه مشاركاتٌ عظيمة ومقامات جليلة ومواقف كبيرة؛ ومنه الإصلاح السياسي والإصلاح الاجتماعي، وما مِن نهضة نَهَضتها الأمة الجزائرية إلا وكان ابن باديس واضع أساسها ومُشيد بنيانها، وهو بحقٍّ كما قال رفيقه (البشير): «**باني النهضات العلمية والأدبية والاجتماعية في الجزائر**»[1]، كلُّ ذلكَ وفق رؤية دينية عميقة، وخطوات مستمدة من الإسلام وتعاليمه الرَّبَّانيَّة، يُجلِّلُ ذلك كلَّهُ علمٌ راسخٌ وَفِكْرٌ ثاقبٌ ورأيٌ صائبٌ وتعليلٌ سديدٌ وتجربةٌ حكيمةٌ -وما أحسنَ العلمَ يَكونُ معهُ الرَّأيُ الحَسَن!-، في شفقةِ نصوحٍ وحُنُوِّ والدٍ وَعطفِ أبٍ، فاستحقَّ لذلك أَن يكون أبًا للجزائريين، وأن يكون للجزائر عالمَها الدِّيني وَقائدَها السياسي وَ(**فيلَسُوفَها الاجتماعي**)، وقد كان الذي حاز هذا اللقب الأخيرَ بين إخوانه وشُهِربِهِ هو الشيخ مباركٌ الميلي، لكن... ما (مباركٌ) إلا تربية شيخه ابن باديس وثمرة توجيهاته وعنايته، نَسَج على منواله واقتفى أثرَهُ، وما كان للتلميذ مِن فضلٍ فلِشيخه منه النصيب الأوفى والحظ الأزكى...وقد سجلت صحيفةُ (المنتقِد) التي أسَّسها ابن باديس بمعونة ومناصرة ثلةٌ من تلاميذه ومنهم (المبارَك)، سجل على صفحاتها تلك الكلمة الخالدة للابن البار والتلميذ المخلِص والعضُد المَتِين: «مَن حاول إصلاح أُمَّةٍ إسلاميَّةٍ بغير دينها، فقد عَرَّضَ وحدتها للانحلال وجسمها للتلاشي، وصار هَادِمًا لعَرشها بِنِيَّة تشييده» اهـ[2]. فهذا المبدأُ الذي بنى عليهِ ابن باديس (نهضتَهُ الاجتماعية)، وهُوَ هُوَ المبدأ الذي صبغَ به كذلك (فلسفته الاجتماعية).

لقد ظهرت دعواتٌ للإصلاح هنا وهناك في المشرق وفي المغرب، ونادى إلى (النهوض) علماءُ ومفكرون وشيوخٌ منتسبون لجامعات وكليات، منسوبون للعلم والدين، بل تكوينهم كان أساسًا دينيًّا إسلاميًّا، لكن طغا ببعضٍ منهم (سُلطان الفِكر)-وللفِكرِ طُغيانٌ- وَاستهوتهم (حرية الفِكر)-حينَ جهلُوا حدَّهَا- وَاستزلَّهم (الاستقلال في الفِكر)-حينَ غَفَلُوا عَن مُنتهاهُ-، فتجاوزوا الحدود الدينية، وتخطَّوا الشرع الإسلامي، وتنكَّبُوا الوحي الإلاهي، ولم يلتزموا الآيات الصريحة والأحاديث الصحيحة، وتمرَّدوا على الأحكام؛ أحكام القرآن والسُّنَّة، وهي –دون ما سواها- أحكامُ العدل والقسط، والحِكمة والتَّعليل، والصلاح والإصلاح...فما لبث أولئك أن خرجوا مِن الدِّين إلى الإلحاد، ومَرَقُوا مِن الإسلام إلى الكفر؛ بطعنهم في الدين تارةً، وجحدِهم للمعلوم بالضرورة من دين المسلمين تارةً أخرى...وكانوا معاوِل هَدمٍ وَسُعاةَ فتنة وناشِري فساد... ومن أمثلة ذلك حادِثَةُ: (الشيخ الطاهر الحَدَّاد)، المتخرج من جامعة الزيتونة وكليتها، والذي رفع شعار «النهوض بالمرأة نهوضًا صحيحًا وتعليمها تعليمًا مفيدًا، **في حدود إسلامها**، التي هي بنظر كل عاقلٍ منصف حدودُ الإنسانية الكاملة»[3]، لكن يظهر كتابُ الحدَّاد: «امرأتنا: في الشريعة والمجتمع»، ويَكشف فيه عن مشروعه (الفاسد)، (المفسِد للمرأة وللمجتمع الإسلامي)، وبانَ بهذا أن أمثال (الحَدَّاد) في إصلاحهم المزعوم إنما يريدون بالنهوض: «**الذهابَ في تيَّار المدنيَّة الغَربيَّة**»، وَما يُخرجُ المرأةَ «عن حدود دينها ووظيفة أنوثتِهَا»، وبان أيضًا أنهم يُريدون إلغاءَ الدِّين من حياة المسلمين، وقطعَ صلة المجتمع بالإسلام، حيثُ دعا (الحَدَّاد) إلى: «إبطال أحكام عديدة من أحكام القرآن الصريحة القطعية الاجتماعية، وتعطيل آيات عديدة من آياته بدعوَى أنها غير لائقة بالنساء في هذا العصر»[4].

لقد تفطن ابن باديس لمكائد أمثال هؤلاء، وكان لهم بالمرصاد، وما فتئ يُنبه المسلمين ويُحذرهم خطر غائلة التغريبين، ويُنذرهم عاقبة الشر والفساد والهلاك الذي يُوقعون فيه أنفسهم بتنكب شرائع دينهم وإهمال أحكام إسلامهم.

.لقد كتب ابن باديس في الإصلاح الاجتماعي كتاباتٍ في مُناسباتٍ شَتَّى، كتب -على وجه الخصوص- في إصلاح المرأة، وإصلاح الأسُرة، وتربية البنين والبنات.

كتبَ عن (المرأة) عمومًا، وعن (المسلمة) خصوصًا، وعن (الجزائرية) بوجهٍ أخص.

كتب عن طرق ترقية المرأة والسبيل إلى نهضتها نهضةً صحيحةً[5].

كتبَ في وظيفة المرأة وما يترتبُ على خروجها عن وظيفتها اللائقة بها[6].

.وكتبَ في السُّفُور والتَّبرُّج، وفصَلَ بين السُّفُور الإسلامي -على حدِّ تعبيره-؛ وهو كشف الوجه والكفين، وبين السُّفُور الإفرنجي.

لقد قاوم ابن باديس السُّفُور الإفرنجي، وحذَّر الفتنة بالنساء، وجعل لذلك يُقرِّرُ أحكام الشرع وحِكَمَه في «سَدِّ ذريعة افتتان الرجال بالنساء»، بسببِ النَّظرِ وغيره[7]، ويُقرِّرُ أيضًا وسائله في دفع هذه الفتنة، مستدلاً بحديث المرأة الخثعمية التي جعل الفضل ابن عباس ينظر إليها وتنظر إليه، فلَوى رسولُ الله ﷺ عنقه، وقال: رأيت شابًّا وشابَّةً، فلَم آمَن الشيطانَ عليهما[8].

.ويكتبُ ابن باديس في رُجْحَانِ «سَتْرِ وجه المرأة عند رؤية الأجنبي»؛ استنادًا إلى حديث عائشة في سترهن وجوههن في وقت الإحرام عند مرور الرجال الأجانب، ويُقرِّر جواز الكشف عند عدم الفتنةِ أو عندَ أمنِها، وأَنَّ السَّتْرَ واجبٌ عند تحقُّقها[9]، يقول: «**اتِّقَاءً للشر والفتنة**»[10]، كما يؤكد ابن باديس –في آخر تقريره- على وجوبِ «غَضِّ البصر وحُرْمَة تجديد النَّظَر»[11].

١- «آثار الإمام البشير الإبراهيمي» (٢٧٨/٥).
٢- «المنتقِد»، عدد (١٠)، ١٤ صفر ١٣٤٤هـ، ٣ سبتامبر ١٩٢٥م، (ص١).
٣- «آثار الإمام عبد ا لحميد ابن باديس» (٤٤٦/٥)، ط. وزارة الشؤون الدينية، الجزائر.

٤- المصدر نفسه.
٥-المصدر السابق (٤٣٩/٥-٤٤٢).
٦- «مجالس التذكير من حديث البشير النذير» (ص١٦٤)، ط. وزارة الشؤون الدينية، الجزائر.
٧- المصدر السابق (ص١٧١).
٨- المصدر السابق (ص١٧٢).
٩- المصدر السابق (ص١٧١).
١٠-المصدر السابق (ص١٧٣).
١١- المصدر نفسه.

إن ما سمَّاه ابن باديس سُفُورًا إسلاميًّا لا يعدو أن يكون من المرأة كشفًا لوجهها وكفيها، «**دُون شعرها وعُنُقِهَا**»، هذا عند أمنِ الفتنةِ -يقولُ-.

ويؤكد ابن باديس على حجاب المرأة، وأنه يكون: بـ«عدمِ إظهار الزينة –غير الوجه والكفين»، وبـ«عدمِ إثارة الفتنة بروائح الطِّيب وخشخشة الحُلي ورنين الخلخال».

أما السُّفُور الإفرنجي الذي حاربه ابن باديس فهو على حَدِّ قَولِهِ: «كشفُ الشعَرِ والعُنُق والأطراف، مع التَّبرُّج بالزينة وما إليها».

لِيدعو ابن باديس آخرًا –وهو المصلح الاجتماعي- إلى تعاون المسلمين واتحادهم لِـ: «منع السُّفُور الإفرنجي»، وكلِّ سُفُورٍ فِيهِ إغْرَاءٌ وإثارةٌ[1].

وَفي مفاسد الاختلاط والامتزاج بين الجنسين، ودخول الرجال الأجانب على النساء؛ كتب كتابةً ضافيةً في «تحريم الخلوة بالأجنبية خصوصًا على الأقارب»[2]؛ يُحذِّرُ فيها مِن سُوء عاقبة التهاون بهذا الحكم الشرعي وما يؤدي إليه من الهلاك والفتنة في الدِّين والعِرض وخراب البيت وفساد الأسرة واضمحلالها[3].

وكتبَ وهو يُقَرِّرُ «حق النساء في التعلم»: «**لا يجوز اختلاط النساء بالرجال في التَّعلُّم**، فإمَّا تُفرَد بيومٍ... وإمَّا أن تتأخرعن صفوف الرجال»[4].

وكتبَ عن «مشروعية تعلم النساء الكتابة»، وَحرَّض على نشر العِلم بالقلَم في وسط البنات كما عند الأبناء[5]، ولما كان تعليلُ مَن مَنعهن مِن الكتابة أن ذلك لأنه قد يُفسدهن ويتوصلن به إلى الفساد، لم يُفوِّت ابن باديس أن يُقيِّد تَعلُّمَها بأنَّهُ تعلُّمٌ: «**على أساسِ دِينِنا**»[6].

ويكتب ابن باديس في «النِّساء والكمال»، ويدعو إلى (تكميل النِّسَاء)، ولكنه كما قال: (**تكميلٌ دِينيٌّ**)، فإنه هو الذي يبلغُ بالأمة إلى السعادَة والكمال[7].

وابن باديس حينما يشرحُ حديث خروج النساء إلى المساجد، لا يفوته أن يُقرِّرَ ما جاءت به الآيات والأحاديث في هذا الموضوع: مِن نهيِ المرأة عن مسِّ الطيب عند خروجها، وعدمِ إبدائها لزينتها إلا ما ظهر منها، وأن تشُدَّ بِخمارها على رأسها تسترُ شعرها وعنقها، وتجعل فوق ثيابها كلِّها كالملاءَة ونحوها، وأن لا تضرب برجلها فيُسمع منها خشخشة الحُلِيِّ أو رنين الخلخال، ومشيِها في حافات الطريق لا أن تمشي في وسطه[8]... في جُملةِ آدابٍ وأحكامٍ هيَ شروطٌ لخروج المرأة حتى لا يحصل الافتتان بها.

ونجدُ ابن باديس يَقفُ وقفةً في «مجالس التذكيرمن كلام الحكيم الخبير» عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾[الإسراء:٣٢]، ويُفيضَ في خطرفاحشة الزِّنا وفي قبحها، ويُبَيِّن كيفَ «حَمَى الشرعُ الشريفُ العبادَ مِن هذه الفاحشة بما فرضَ مِن الحجاب الشرعي»، «وبما حرَّم من تَطيُّب المرأة، وقعقعةِ حُلِيِّهَا عند الخروج، وخلوتها بالأجنبي، واختلاطِ النساء بالرجال»[9]. والمسلمُ المسلمُ عند ابن باديس هو الذي يتوقَّى الشرَّ، ويتحرَّى مقتضىَ النهي عن الزِّنَا، ويتحرَّى التشريعات الإلهية بالترك والابتعاد عنهُ[10].

هذا كُلُّهُ مِن ابن باديس: دعوةٌ للمحافظة على الأحكام الشرعية والآداب الإسلامية التي شرعها الله لنساء المؤمنين[11].

وبعبارة أخرى كان ابن باديس: يدعو للمحافظة على: «**الوضعية الإسلامية العفيفة الطاهرة**»[12]، ويدعو إلى نشر هذه «الحقائق الشرعية» لتثبيت «التربية الإسلامية»[13]، وليكونَ أبناؤنا وبناتنا ورجالنا ونساؤنا: «**مثالَ الطُّهرِ والعَفَافِ والصَّوْنِ لِلأجيال**»[14].

لِذا لَمَّا يَكتبُ ابن باديس عن «خيرِ النِّساء»، نَجِدُهُ يؤكد على أن خيريَّة المرأة، إنما هيَ في (عفافِها)، وأن هذا (العفاف) هو أحد الأركان التي (تنتظم بها الأُسَر) و(يُحفَظُ النَّسل)، وبهذين الأمرين يكونُ بقاءُ الأُمَم[15].

كما أن ابن باديس حينما دعا إلى تعليم المرأة والبنت وتربيتهما، دعا مع ذلك إلى أن تكون التربية والتعليم للنساء والبنات مِمَّا يُقوِّي فيهما: (صفةَ العِفَّة)، إلى صفاتٍ أخرى، تنتظم بها الأُسَر ويُحفظ النَّسل[16].

ومن الخلل الذي سرى إلى المجتمعات المسلمة ومن الفساد الذي طرأ على الحياة الاجتماعية للمسلمين وبات يُهدِّدُ: «**الوضعية الإسلامية العفيفة الطاهرة**»: ظاهرةُ الحُبّ والتَّعارُف بين الجِنسَين، بين الشباب والشَّابَّات، لقصدِ الزواجِ، وهي عادةٌ غريبةٌ عن مجتمع المسلمين: مجتمعِ العفافِ والطُّهر، وهيَ مفهومٌ للزواج غيرإسلاميٍّ، دخلت عليهم هذه العادة في فورة الافتتان بالمدنيَّة الغربيَّة والانسياق وراء دعوات التَّغريبيِّن، وَتبنَّوا هذا المفهوم على حينِ غفلةٍ عن الحقائق الشرعية والآداب الإسلامية.

نشر ابن باديس في أحد أعداد مجلته «الشِّهاب»[جزء صفر ١٣٥٤هـ، ماي ١٩٣٥م، ج٢، مجلد ١١، (ص ٨٤-٨٩)] كتابةً اجتماعية –هيَ قصَّةٌ- لأحد كُتَّابِهِ[17]، أقرَّ فيها هذه العادة الدخيلة، بل وجعلها أساسًا للزواج السعيد ولاستقرار الأُسرة، وقال بالحرف: «سيكون زواجًا سعيدًا بأتم معنى الكلمة، لوقوعه على أساس الحب والتعارف، خلافًا للمألوف عندنا من تلفيق الزوجين من روحين قد تكون العلاقة بينهما ضعيفة، وقد تكون معدَمة بالكلية،فينشأ عن ذلك شقاء الأسرة وفساد الأخلاق وتوتر العلاقات في النهاية»اهـ فعلق ابن باديس في الهامش بقوله: «**الزواج في الإسلام مَبنيٌّ على المعرفة والرِّضا، ولعلنا نكتبُ في الجزء الآتي –إن شاء الله- رُجحانه على الزواج ا لمبنيّ على الحُبِّ والتَّعارُف**»اهـ وفِعلاً كتبَ ابنُ باديس مقالاً في هذا الموضوع نشرهُ في [جزء ربيع الأول ١٣٥٤هـ،٣ جوان ١٩٣٥م، جزء ٣، مجلد ١١، (ص١٥٤-١٥٦)]، في ركن (المقالات: معرض آراء وأفكار) وعنوانه: «الزواج: أَيُبنَى على الحُبِّ

---

١- «مجالس التذكيرمن حديث البشيرالنذير» (ص١٧٣-١٧٤).
٢- المصدرالسابق (ص١٧٨).
٣- المصدرالسابق (ص١٧٩).
٤- المصدرالسابق (ص١٥٨).
٥- المصدرالسابق (ص١٦٠-١٦١).
٦- المصدرالسابق (ص١٦١).
٧- المصدرالسابق (ص١٦٩).
٨-المصدرالسابق (ص١٧٥-١٧٦).

٩- «مجالس التذكيرمن كلام الحكيم الخبير» (ص١٢٧-١٢٨)، ط. وزارة الشؤون الدينية، الجزائر.
١٠- المصدرنفسه.
١١- «مجالس التذكيرمن حديث البشيرالنذير» (ص١٧٣).
١٢- المصدرنفسه.
١٣- المصدرالسابق (ص١٧٤).
١٤- المصدرنفسه.
١٥- المصدرالسابق (ص١٦٤)
١٦- المصدرنفسه (ص١٦٤).
١٧- هو الأديب محمد بن العابد الجلَّالي، تلميذ الإمام ابن باديس ومعاونه في تحرير وإدارة مجلة «الشِّهاب»، وكان ينشرقصصًا اجتماعية بإمضاء «رشيد»، وهوعند الباحثين قد يكون رائد القصة الصغيرة في الجزائر.

والتعارف أمْ على المحبَّةِ والمعرِفَة؟»...

ونشر ابن باديس في [جزء محرم ١٣٥٥هـ، أبريل ١٩٣٦م، ج١، مجلد ١٢، (ص١١-١٧)] مقالاً بعنوان: (الشبان المسلمون والزواج)،لكاتبٍ رمز لاسمه بِ(ع.د)...ولما كان كاتبُه انساق وراءَ فكرة تحبيذ الزواج المبني على الحُبّ كما عندَ الإفرنج، كتبَ ابن باديس في آخره يقولُ: «**سنُعلّق على هذا المقال أو نكلف من يعلق عليه في العدد الآتي إن شاء الله**»... لم يتيسَّر لابن باديس أن يكتبَ في ذلك بنفسه، ولم يتيسر أيضًا لمن كلفه بذلك من معاونيهِ في تحرير المجلة، وَكما قال: «حالت أعذارٌ بينَ ذلك ومَن كلفناهُ بالتعليق».

لِذا عمدَ إلى نشر مقاله السابق: «الزواج: أَيُبنَى على الحُبّ والتعارف أمْ على المحبّةِ والمعرِفَة؟» [جزء ربيع الأول ١٣٥٥هـ، جوان ١٩٣٦م، ج ٣، مجلد ١٢، (ص١٣٠-١٣٢)]، لِيَسُدَّ مَسَدَّ ما كانَ وعدَ به من التعليق على المفهوم الإسلامي للزواج، وَأمضاه بإمضائه المعروف وهو حرف «ع» الذي يرمز لاسمه: (عبد الحميد)، وقد أمضى به الكثير من مقالاته العلمية والاجتماعية.

انتصَرَ ابن باديس لِلفِكرة الإسلاميّة، وهِيَ الفِكرَة الرَّاقِيَة، وهِيَ أن الزواجَ السَّعيد يُبنَى على المعرفة وَالمحبّة، وأَتَى على ذلك بالأدلة الشرعية والحِكَم والتعليلات... لقد بيَّن ابن باديس أنَّ هذه الفِكرة الإسلامية مدارها على مراعاة الفضيلة والمحافظة على العفاف، فِكرَةٌ مُستندُها الشرع الإسلامي وأدلَّتُهُ، ولا تخرجُ عن الفقهِ في أحكامِه، ولأجلِ ذلك وضع في آخر مقاله: مستنداتِهِ؛ وهِيَ أحاديث نبويَّة من كُتُب السُّنَّة.

هذا مقال ابن باديس في مفهوم الزواج في الإسلام، وهو حلقةٌ من حلقات دفاعِهِ عن الحقائق الشرعية والفضائل الإسلامية، ومُدافعته للمفاهيم الغربية والأجنبية عن الإسلام، والتي لا ترعَى عفافًا ولا تحفَل بطُهرٍ وفضيلَة، مقال ابن باديس هو تثبيتٌ للتربية الإسلامية التي عاشَ يعمَلُ لها وَيدعُو إليها، وتأكيدٌ على المحافظة على «**الوضعية الإسلامية العفيفة الطاهرة**»، التي صارت أُممُ الغرب الأجنبيّ عن الإسلام ترجعُ إليها، وتُقرُّ بأنَّ السعادةَ والكمالَ فيها.

مقالُ ابن باديس هذا -كما قالَ هُوَ عنهُ-: «فيهِ البيان الشَّافِي لِحُكم الإسلام وحِكمتِهِ في الموضوع».

## الزَّوَاج

### أَيُبنَى على الحُبِّ والتعارُف أمْ على المَحَبَّةِ والمعرِفَة

إنما كمال الإنسان وسعادته بزكاء نفسه، بتخلّيها عن الرَّذائل وتحليها بالفضائل، ولذا كانت أحكامُ الإسلام كلُّها مبنيةً على اعتبار المصالح ما دامت لا تُصيبُ الفضيلة بسُوء ولا تجرُّ إلى شيءٍ من الرذيلة.

ومن أول الفضائل الإنسانية العفاف، وإنما سعادةُ الحياة الزوجية وهناؤها وسلامتها ودوام ارتباطها – بتحقيق العفاف مِن الجانبين. فكانت مراعاة العفاف والمحافظة عليه في الشرع الإسلامي مراعاة للفضيلة والمصلحة معًا ومحافظة عليهما.

مَنَعَ الإسلام من معاشرة الأجنبيَّة والإختلاء بها لما فيهِ من تعريض فضيلة العفاف للخطر، فالتعارف المُتَعَارَفُ عند غير المسلمين ممنوعٌ في الإسلام والحُبُّ الشَّهواني المبني عليه مثلُه، ولكنه شَرَعَ لِمُريد الزواج أن ينظر إلى من يريد التزوج بها إلى وجهها وكفيها، وحَثَّهُ على هذا النظر لأنه مِن أسباب المحبَّة، كما شَرَعَ لهُ أن يبحث عن دينها وأخلاقها، فإذا كانت ذات دين وخُلُق رجَّحَها على ذوات المال والحسَب والجمال.

وكما كان هذا مشروعًا في حق الرجل، فكذلك هو مشروعٌ في حق المرأة، إذ أوجبَ على وليّها أن يستأْمِرَ الثيّب ويستأذِنَ البِكْر، فتختارُ هِيَ وتبني اختيارَها على الرؤية والمعرفة بِدِينِهِ وأخلاقِهِ بالسؤال إن شاءت، أو تكتفِي بِوَلِيِّها إذا كان محلَّ ثقتِها.

فإذا انبنت بينهُما الزوجية عن الرؤية والمعرفَة بالدِّين والخُلُق، ورضِيَ كلُّ واحدٍ منهما بصاحبِهِ، كانا حريَّينِ وحقيقَيْنِ أن تُوضعَ بينهما المحبَّةُ والأُلفة.

فالزواج الإسلامي مبنيٌّ –كما رأيت- على المعرفة البدنيَّة بالرؤية والمعرفة النفسيَّة بالبحث عن الدِّين والخلُق، وعلى المحبَّة التي تحصلُ بذلك، ويدلُّ عليها رِضَى كلِّ واحدٍ منهما بصاحبِهِ.

ولم يُراعَ في الزواج الإسلامي الحُب الشهواني الذي يُثيرُهُ الإختلاط، لِما في الاختلاط مِن تعريض الفضيلة للخطَر، ولأن الحُبَّ ثورةٌ وقتيةٌ لا تلبثُ أن تنطفِي، وَأَخْلِق بالزواج المبنيّ عليهِ أن تنحَلّ عُراهُ عند انطفائِهِ.

هما أمران: حُبٌّ ثائرٌ مبنيٌّ على تعارُف مُخطِرسريع الخُمود، ومحبَّةٌ هادئةٌ مبنيَّةٌ على نظرعفيف وعلمٍ بالدِّين والخلُق، تدوم بدوام الدِّين وتثبت بثبات الأخلاق.

أيُّ هذين أحقُّ أن تُبنى عليه الزوجية التي يُقصد منها دوام التآلُف والتعاوُن والعمَل لخيرِ الأُسرَة والأمة والبشريَّة؟ لا أحد من العقلاء يتوقَّف في الجواب عن مثل هذا السؤال.

وإذا نظرنا إلى نتائج زواج الحُبّ والتَّعارُف، فإنَّنا نرى ما يشكُو منه الكثيرمن أهلِهِ، وقد قرأنا في الصحف منذ مدةٍ قريبةٍ أنَّ فتيات اليابان رجعنَ عن الزواج المبنيِّ على الحُبِّ والتَّعارُف إلى الاعتماد على خبْرَة الآباء والثقة بهم. ونشرت مجلة «المقتطف» في عدد مارس الماضي تحت عنوان: «الحب والمغازلة في روسيا السوفياتية» ما يلي:

«يقول كاتب أوربي عاد حديثًا من روسيا: إن الحكومة السوفيتية ألغت الحُبَّ من بلادها؛ لأنها تراه مجرد عبث وإضاعة وقت فيما لا طائل تحته»

لسنا نذكر هذه الأُمم لنتأيَّدَ بها بعد ما عرفنا الإسلام وفقهنا أحكامَه الرَّاقِيَة، وإنما نذكرُها لِنُبيِّن كيف تتراجعُ الأُمم الأجنبيَّة عن الإسلام إلى تعاليم الإسلام؛ دين البشريَّة العام. «ع»

---

**مستندات المقال:** قول النَّبيِّ ﷺ للمُغِيرة بن شُعْبَة وقد خَطبَ المُغيرة امرأةً: «**انْظُرْ إِلَيْهَا، فَإِنَّهُ أَحْرَى أَن يُؤدَمَ** (تُوضَعَ المَحَبَّة) **بينكُمَا**» رواه أحمد والنسائي والترمذي وابن ماجه[١].

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تُنكَح الأَيِّم** (الثَّيِّب) **حتَّى تُسْتَأْمَر، ولا البِكْر حتَّى تُستأذَن**»، قالوا: وكيفَ إذنُهَا، قال: «**أَن تسكُتَ**» رواه البخاري ومسلمٌ وغيرهما[٢].

١- رواه أحمد في «المسند» (١٨١٣٧)، والترمذي في «السنن» (١٠٨٧)-وحسَّنَهُ-، والنسائي في «السنن الصغرى» (٣٢٣٥)، وابن ماجه في «السنن» (١٨٦٥ و١٨٦٦)، عن المغيرة بن شعبة أنه خطبَ امرأةً... فذكرَهُ.
٢- رواه البخاري (٥١٣٦)، ومسلمٌ (١٤١٩).

# التداولية وبلاغة الخطاب في قصيدة ( شعب الجزائر مسلم ) لابن باديس

د. محمد مدور - غرداية

## مدخل :

تناول الشعراء في العصر الحديث قضايا الشعر السياسي والاجتماعي، وحملوا راية النهضة الفكرية والأدبية ، وتوجهوا إلى الشعوب بالكلمة النابضة والمشاعر الصادقة التي تحمل أفكار الأمة وانشغالاتها وطموحات الشعوب وآمالها ، وتعالج آفات الأمم وأدوائها بالنصح والتوجيه والتوعية والإرشاد ، لإدراكهم مدى أهمية الوعي الوطني في صناعة المستقبل ، وفي هذا السياق يقول الشاعر أحمد شوقي :

نصحت ونحن مختلفون دارا
ولكن كلنا في الهم شرق

وقال أيضا :

وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق

ويقول أبو القاسم الشابي مستنهضا همم الشعوب:

إذا الشعب يوما أردا الحياة
فلا بد أن يستجيب القدر

فجاءت رسالة الشعر مجسدة الوظيفة الندائية ، وقد تعددت طرق الشعراء في تناول قضايا التحرر وإحياء الأمجاد ، وترسيخ الهويات والتصدي لمخططات المسخ والسلخ والاستلحاق ، وقد عمل الشيخ ابن باديس على ترسيخ قيم الهوية الوطنية في خطبه ومقالاته وسائر أنشطته الإصلاحية .

وتقوم هذه الدراسة على تحليل المدونة الشعرية المذكورة : شعب الجزائر مسلم . وفق مقاربة الأفعال الكلامية انطلاقا من مفاهيم الفلسفة التحليلية وتصنيف جون سيرل ، الذي جعل أفعال الكلام خمسة أصناف هي : الإخباريات و الوعديات و التوجيهات و الإيقاعيات و التعبيريات . وما يتصل بها من شروط تمهيدية وتأسيسية ، ومن شروط النجاح ، ومن قوى إنجازية ، ومضمرات الأقوال ، والمعاني الصريحة والمستلزمة مقاميا ، ومقاصد المتكلم ، والمؤشرات اللغوية والأسلوبية المسهمة في تعديل القوة الإنجازية ، واستراتيجيات الخطاب وقوانين التخاطب والملاءمة إلى غير ذلك من الآليات التداولية في التعبير الأدبي .[1]

والفعل عند التداوليين هو التصور بأن اللغة ليست مجرد ناقل للمعارف والقيم وإنما هي فعل وإنجاز، فالتلفظ بالقول هو إنجاز فعل، أو كما يقال في الفرنسية : Quand dire c'est faire .[2]

والقصيدة المذكورة على بساطتها ووضوحها إلا أنها دستور حياة ومنهج كفاح ، وخطة إصلاح ، لخص فيها الشاعر منهجه الإصلاحي وطريقة التعامل مع كل الأطراف الفاعلة في السياق الوجودي ، ورسم فيها مسار العمل النهضوي من التأسيس وآليات البناء ومبادئ الانطلاق ، ومراحل الإجراء وانتهاء بالغاية المستهدفة ولعل ذلك يتلخص في قول الشاعر :

هذا نظام حياتنا بالنور خط و باللهب
حتى يعود لقومنا من مجدهم ما قد ذهب

## ظروف إنتاج النص :

قال الشاعر هذه القصيدة إثر عودته من فرنسا عام 1937م ، والتي حارب فيها فكرة إدماج الجزائر في فرنسا ، وألح على توضيح معالم الشخصية الجزائرية : وهي العروبة والإسلام ، وقد رسم ابن باديس في هذه القصيدة طريق الثورة ضد المستعمر وأعوانهم من الخونة والسلبيين أما المستعمرون فلهم الويل والدمار والحرب ، وأما الخونة والعملاء فهم كالشجرة الخبيثة لا تنبت إلا خبثا ، وخير علاج لها أن تجتث من الأرض ، وأما السلبيون والغافلون فقد يستيقظون على صيحات الأحرار فيصبحون قوة يشتد بها عضد المجاهدين ، وكأن الشاعر الملهم كان يرهص بمسيرة النضال في الجزائر ، فقد سارت كتائب جيش التحرير على هذه الطريقة وحققت للجزائر حريتها واستقلالها .[3]

## العنوان :

جعل الشاعر عنوان القصيدة : شعب الجزائر مسلم . في صيغة الجملة الإسمية الإخبارية التقريرية لتأكيد القضوي وتثبيته ، وإبطال وإبعاد كل ما يخالفه من مزاعم يدعيها المستعمرون والاندماجيون .

هذا العنوان يتسم بالوضوح والبساطة والدلالة على المضمون، وهو يمثل البنية الرحمية التي تتولد منها النص ، ثم راح يسري في كل جزء من أجزاء القصيدة ، وبه يكشف الشاعر ابن باديس عن قصده

من الخطاب ، وغايته التواصلية في إقناع السامعين ، وفق استراتيجية توجيهية تتخذ من الفن وسيلة لتحقيق الغايات الوطنية والسياسية والإصلاحية .

**مطلع القصيدة :**

شعب الجزائر مسلم        وإلى العروبة ينتسب

البيت الأول في القصيدة هو الفاتحة النصية ، فقد استهل به الشاعر قصيدته ، ولخص فيه كل مضامين النص ، فهو بمثابة البنية العميقة التي تختزن الدلالات ، وتبرم العقد التخاطبي بين الشاعر والمتلقين ، ويعرض فيها مقاصده والافتراضات المسبقة .

# أفعال الكلام :

## الإخباريات :

إتخذ الخطاب الشعري من الخبر وسيلة لوصف الحوادث ، وتقرير الحقائق وتوجيه المستمعين وغرض هذا الصنف هو نقل المتكلم واقعة ما من خلال قضية ، واتجاه المطابقة فيه من الكلمات إلى العالم ، ويتضمن معظم أفعال الإيضاح عند أوستين[4]

**ففي قوله في البيت 1 :**

شعب الجزائر مسلم        وإلى العروبة ينتسب

تتضمن الصيغة الإخبارية (شعب الجزائر مسلم) فعلا كلاميا مباشرا هو التقرير ، تقريرا عن حقيقة الشعب الجزائري ، وتحديدا لهويته الدينية تقريرا يزيل اللبس ، ويجلي الحقيقة ، كما يتضمن الإخبار فعلا كلاميا غير مباشر وهو رد على جهة معينة يستهدفها الخطاب وهي فئة الاندماجيين والتغريبيين والمستلبين بأن شعب الجزائر مسلم ، وهذا جزء من هويته .

وكان الرد هو إبطال لحجج الإندماجيين ، وإبطالا لمقولاتهم ومزاعمهم ، ويتضمن الخطاب توجيه رسالة واضحة إلى المستعمر الفرنسي الذي وضع المخططات لتقسيم الشعب وطمس هويته الوطنية والدينية واللغوية والحضارية ، ووضعه أمام الواقع ، وكانت الأفعال ناجحة وفق شروط التأسيس وقواعد التخاطب ، فالخطاب صادر من شخصية وطنية ،وزعيم حركة سياسية ، ورائد نهضة إصلاحية ، يتوجه بخطابه من أعلى سلطة المنبر وصوت القلم ، إلى متلقين هم بحاجة إلى توجيه وتنوير وسماع صوت الحق ، لذلك فالشاعر من موقع المسؤولية يتحمل هذه الأمانة وأداء هذا الواجب .وقد عبر عن ذلك بالعنصر الإشاري الجمعي (نا ) في الكلمات (رجاؤنا – ودنا – ذلنا – حياتنا – قومنا ) .

ولتدعيم القوة الإنجازية لهذا الفعل الإخباري التقريري ، اختار الشاعر الصيغة التركيبية المعبرة عن تلك الغاية، بحيث وظف الجملة الاسمية (شعب الجزائر) التي تدل على الثبات والتأكيد بقوة اسمية الجملة ، ويتجلى التعظيم في تنكير لفظ مسلم الذي جعله خبرا ، والغرض من ذلك كله هو التأثير في المتلقي ، وحمله على التمثل بهذا المبدأ والتحلي به ، والنضال من أجل تحقيقه .

**وفي قوله :**   وإلى العروبة   ينتسب   .

فعل كلامي غرضه الإخبار والتقرير ، فهو يقرر حقيقة معروفة يذكر بها ويرسخها في الأذهان ، وهي انتساب الشعب الجزائري إلى العروبة التي هي جزء هام من مكونات الهوية الوطنية ، فالشاعر يجلي هذه القيمة بكل وضوح ، ويعلنها بكل صراحة إزالة للبس ، وقطعا لطمع الطامعين في تغريب المجتمع الجزائري واستئصاله عن هويته العربية و الأمازيغية .

كما يتضمن الإخبار فعلا كلاميا غير مباشر وهو الرد على الحركات الإستئصالية وإسكات الأصوات الاندماجية وإبطالا لمطامع القوى الاستعمارية . فهذا الفعل الكلامي يؤدي وظيفة حجاجية هي الإبطال والتكذيب لمزاعم تلك الحركات وأهدافها المعلنة منها والخفية ، من جهة ، وتثبيت مبادئ وركائز الهوية الوطنية .

ودعم الشاعر القوة الإنجازية للفعل بتقديم الجار والمجرور للاهتمام بأمر المتقدم مع رعاية القافية الساكنة الثابتة والجملة الظرفية المستقرة ، والهدف من استعمال الفعل اللغوي هو تغيير الواقع والتأثير فيه لا مجرد أداة إخبار و وصف ، وهذه هي الرسالة الإصلاحية التي يحملها فكر ابن باديس .

**وفي البيت 2 :**

من قال حاد عن أصله
أو قال مات فقد كذب

هنا فعل كلامي إخباري غرضه الإنجازي هو تقرير الحقائق عن الشعب الجزائري المتمسك بهويته وأصالته ، وفي التقرير ينفي الشاعر كل دعوى بانحراف الشعب وحياده عن أصله ، وينفي كل دعوى عن موته ، فما هي إلا أخبار كاذبة يروج لها المستعمرون وأذنابهم من الإندماجيين والتغريبيين .

كما يتضمن الإخبار فعل التكذيب ، فالشاعر يكذب مزاعم هؤلاء ويبطل قولتهم بموت الشعب ، والموت هنا مجازي وليس هو الموت الحقيقي البيولوجي ، إنه الموت المعنوي ، فهو مثل قوله تعالى : (أومن كان ميتا فأحييناه ) فالمراد بالموت هنا الغفلة والنوم والتخلف والغياب ، كل هذه الصفات مجتمعة تشكل صورة الشعب الميت الذي لا يحس ولا يتألم ، فهو كالشعب الذي وصفه الشاعر أبو القاسم الشابي بقوله:

أيها الشعب أنت طفل صغير
لاعب بالتراب والليل مغسي
أنت قوة كبلتها ظلمات
العصور من أمس أمس

ولعل المراد بالموت ما قله الشاعر :

وذو الجهل ميت وهو ماش على الثرى
يظن من الأحياء وهو عديم.[5]

والكذب في عرف البلاغيين والتداوليين هو الخبر المخالف لما هو

حاصل في نفس الأمر من غير نظر إلى كون الخبر موافقا لاعتقاد المخبر أو هو على خلاف ما يعتقده ، ولكن إذا اجتمع في الخبر المخالفة للواقع والمخالفة لاعتقاد المخبر كان ذلك مذموما ومسبة [6] .

كما هو وارد في البيت : ( أو قال مات فقد كذب) وهذا ما أكده الشاعر بتوظيف أداة التوكيد (قد) .

**وفي البيت 3 :**

**أو رام إدماجا له رام المحال من الطلب**

هنا فعل كلامي إخباري يخبر فيه أن من أراد إدماج الجزائر في فرنسا فهو يطلب المحال ، وهنا صرح بلفظ الإدماج دون كناية أو تلميح إزالة للبس ، وفضحا للتضليل الإعلامي المسلط على النخبة الوطنية آنئذ ، وقد اشتهرت مقولة ابن باديس في هذا المجال ، والتي حارب فيها فكرة الاندماج يقول : «إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا ، ولا يمكن أن تكون فرنسا ، ولا تريد أن تكون فرنسا ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت ، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها وفي دينها ، ولا تريد أن تندمج ولها وطن محدد هو الوطن الجزائري » [7].

إن الصيغ الإخبارية كما يقول أوستين ليست وظيفتها مجرد إخبار ، إنما تؤدي وظيفة إنشائية من خلال قوتها الإنجازية غير المباشرة المستلزمة مقاميا مثل : الأمر والنهي والحث والترغيب والوعد وغيرها[8].

وقد وظف الشاعر مؤشرات لغوية لتقوية الغرض الإنجازي كقوله (رام المحال) فجعل فكرة الإدماج أمرا محالا ، والمحال هو الشيء الذي يستحيل تحققه والغرض هو إبطال مشروع طمس الهوية الوطنية .

**وفي البيت 4 :**

**يا نـــشء أنت رجاؤنا**
**وبك الصباح قد اقترب**

يتوجه الشاعر بالخطاب إلى الشباب ، مستهلا بفعل النداء الذي يسبق التوجيهات لغرض لفت الانتباه ، لما يعلمه الشاعر من أهمية عنصر الشباب في معركة الحياة ، فهو يستحق هذه الالتفاتة لإدراجه في مخطط النهضة وإشعاره بمسؤوليته الرائدة .

وعاد الشاعر لأفعال الإخبار والتقرير (أنت رجاؤنا) ، (وبك الصباح قد اقترب) لتشخيص رسالة الشباب من خلال توظيف العنصر الإشاري (أنت) المقدم للتعيين وكأنه يشير إليه مذكرا إياه بواجبه ، فهو رجاء الأمة وأملها في النهضة واسترجاع الحق المسلوب ، وبفضل الشباب وجهودهم يقترب الصباح ، وتنقشع غشاوة الظلام ، فالشاعر يتفاءل بمستقبل مشرق ، ولا يخفى ما لجمال لفظة الصباح ودلالاتها في تشخيص الواقع المظلم .

وينتقل الشاعر إلى توظيف سلسلة من الأفعال الكلامية التوجيهية ممثلة في الأمر في قوله : (خذ للحياة سلاحها) و (خض الخطوب ولا تهب) و (ارفع منار العدل ) و (أَدم من غصب) و (اقلع جذور الخائنين ) و (أذق نفوس الظالمين سما...) و (اهزز نفوس الجامدين ) و (كونوا له يكن لكم) .

وتسمى هذه الأفعال الكلامية التوجيهية بالأمريات «وهي نوع من أفعال الكلام التي يستعملها المتكلمون ليجعلوا شخصا آخر يقوم بشيء»[9]

وغرضها الإنجازي هو توجيه المخاطب إلى الفعل والتغيير ، أما الشرط المعد له فهو قدرة المخاطب على آداء المطلوب منه ، وفي هذه القصيدة يصدر الشاعر مجموعة من التوجيهات الطلبية لتوجيه المتلقين وأوامر قابلة للتنفيذ ، ولذلك فإن رومان جاكبسون يسمي وظيفة التوجيه بالوظيفة الإيعازية أو الندائية [10].

وتتميز هذه التوجيهات بالوضوح في التعبير عن قصد المتكلم ، فذلك يزيل اللبس على السامع مما يضمن تحقيق الاستجابة ، وتأكيد الطلب لتركيز المتكلم بصيغة الأمر يكون قد أضفى على نفسه مرتبة الآمر فيضع على الآخر في مرتبة المأمور.[11]

استعمل الشاعر في أوامره التوجيه بألفاظ المعجم مثل : خذ ، خض ، وارفع ، واقلع ، واهزز ...الخ ، وتتميز هذه الأفعال الأمرية بالقوة والشدة ، والنبرة الصوتية المفخمة التي تسهم في تعديل القوة الإنجازية نحو التأكيد والتوجيه الصارم ، والذي لا تلطف فيه ولا ملاينة ، وذلك ما يقتضيه المقام التخاطبي ، وأحيانا يستعين بذكر ما يتوقف عليه المطلوب مثل : ذكره خطورة الخائنين في قوله في البيت 7 :

**واقلع جذور الخائنين فمنهم كل العطب**

فإن تحقيق ما تصبوا إليه الأمة لا يتم إلا باقتلاع جذور الخيانة ؛ لأنها سبب الانشقاق والتثبيط والتصدع .

ويستعين الشاعر أحيانا بالتوجيه المركب باستعمال أكثر من أسلوب في العبارة الواحدة كجمعه بين الأمر والنهي في قوله :

**وخض الخطوب ولا تهب**

وقد تنجز التوجيهات من خلال المنطوقات الإنجازية غير المباشرة مثل : خروج الأمر للدلالة على معان متضمنة في القول . ففي قوله : ( خذ للحياة سلاحها ) أمر يراد به النصح والحث الموجه للشباب ، أن يأخذوا للحياة سلاحها ، وهي كل ما تتطلبه من وسائل تحقيق الحياة الكريمة وليس أي حياة مع الخوض في المعترك بشجاعة وقوة ، فذلك أضمن للحياة الكريمة .

**و في البيت 6 :**

**وارفع منار العدل والإحسان**

أمر يراد به الحث والإرشاد إلى التحلي بقيم الإنسانية والأخلاقية في العمل النضالي ، وعلى الأخص قيمتي العدل والإحسان ، وذلك يكون في نظر الشاعر برفع منارهما في صورة سلوك حضاري ، يمارسه الإنسان ويحيا به ، وهذا الشعار يجسد شعار مبادئ جمعية العلماء المسلمين القائمة على العدل والإحسان ، ثم اقتضت ضرورة السياق إيراد فعل

كلامي آخر يقابل العدل والإحسان ، وهو الأمر في قوله : (واَصْدَم من غصب ) ففي الأمرقوة وشدة في الطلب كما يدل عليه الإيقاع الصوتي ، وهذه الشدة تناسب المقام الذي يعبر عنه الشاعر ، من قوة الرد على الغاصبين ، ثم اقتضى الموقف إيراد فعل كلامي آخر لا يتم الفعل السابق إلا به ، وهو الأمر في قوله :

(واقلع جذور الخائنين فمنهم كل العطب)

وقد زاد التعبير الإستعاري هذا الأمر قوة بتشخيص صورة الخونة الذين تجذروا بعمق في تربة المجتمع الجزائري ، ونمو كالطفيليات ولا يمكن القضاء عليهم إلا باستئصال شأفتهم ، وقد أبدع الشاعر التعبير عن هذا المعنى ، لأن عدم القضاء على الخونة نهائيا يجعلهم يتمكنون من العودة والاستنبات مرة أخرى ، ولكن الاجتثاث كان بليغا في التعبير عن القضاء النهائي الذي لا رجعة بعده، وفي جواب الطلب زيادة توضيح وإقناع بخطورة هذه الفئة ، وإسهامها في عرقلة مسيرة النهضة والتحرر ، وأفاد العنصر الإشاري المتقدم (منهم) تأكيد هذه الخطورة إضافة إلى التوكيد المعنوي بالأداة (كل) .

**الأمر : في البيت 8 :**

وأذق نفوس الظالمين سما يمزج بالرهب

والأمر هنا فعل كلامي مباشر فيه طلب القيام بالفعل ، فهو يوجه خطابه إلى الشباب ويأمرهم بالاقتصاص من الظالمين ، قصاصا موجعا ممتزجا بالتخويف والترهيب ، لإيقاف المعتدين عند حدودهم ، وفق ضوابط العدل والإحسان التي سبق ذكرها ، وإلى جانب الأمر فعل كلامي غير مباشر متضمن في القول ومستلزم مقاميا هو التهكم والإهانة في قوله : وأذق نفوس الظالمين سما يمزج بالرهب . والذوق مستعار للإحساس ، وصيغة الأمر مستعملة في الإهانة بحيث يكون المقصود عكس المدلول تأكيدا للمعنى التهكمي ، وهذا التعبير في غاية الدقة والجمال ، وذلك بأن يذيقهم من نفس الكأس التي سقاهم الظالمون منها [12].

الأمر : في قوله :

واهزز نفوس الجامدين
فـــــربما حيي الخشب

الخطاب هنا موجه إلى فئة المحايدين السلبيين ، الذين يمثلون قطاعا واسعا من الشعب الجزائري في تلك المرحلة ، فقد استسلموا للأمر الواقع وخضعوا لسياسة المستعمر وأذنابه ، فتوجه الشاعر بهذا الأمر إلى الشباب الناهض الواعي للقيام بمهمة التوعية ، وإيقاظ النفوس وتنبيه الهمم لعلها تنهض من غفلتها ، وتستيقظ من سباتها لتدب فيها روح الحياة ، وتخضر بعد جفاف ، وتثمر بعد انقطاع .

ولتعديل القوة الإنجازية للفعل الكلامي الأمري وظف الشاعر بعض المؤشرات اللغوية الملائمة لذلك كقوله : ( أهزز) فاختيار الفعل بهذه الصيغة الموحية بالفعل والحركة والتكرار يراد به إنجاز الفعل وفق تلك الصفة ، لأن محاربة الجمود يتطلب هزات متكررة ، وكذلك توظيف (ربما) الدالة على التشكيك وانتفاء اليقين رجاء ان يصبح الخشب عودا أخضر ، فيلين ويتفاعل مع مقتضيات الحياة الكريمة .

وفي ختام سلسلة الأفعال المرية اقتضى المقام توجه لنداء إلى المجتمع بكل فئاته يحثهم على العناية بهذا النشء الذي هو أمل الأمة ويوصيهم به خيرا ، وقد جاء ذلك في قوله في البيتين 10 و 11 :

يا قوم هذا نشؤكم وإلى المعالي قد وثب
كونوا له يـكن لكم وإلى الأمـام إبن وأب

وبعد توجيه النداء قدم الشاعر طلبه مشيرا إلى هؤلاء الشباب الناهض المتوثب إلى المعالي فلابد من دعمه لتحقيق هذه الطموحات المشروعة الشريفة ، ثم جاء الفعل الكلامي الأمري في البيت 11 يحدد فيه الشاعر مطلبه الواجب تجاه الشباب بوضوح في صيغة طلبية متقابلة بمعنى كونوا له أبا يكن لكم أبنا ، أي كونوا له أبا عطوفا راعيا يكن لكم إبنا بارا ثم أدرج عبارة إلى (الأمام) في إشارة منه إلى التخطيط المستقبلي لجني ثمار هذه الغراس .

ولا يخفى ما في العنصر الإشاري (كم) في ( نشؤكم) من ربط الصلة بين الآباء والأبناء لدفعهم إلى تحمل مسؤولية هذه الأبوة ، وهذا الاهتمام من الشاعر راجع إلى إدراكه العميق لأهمية تربية النشء ، وأنه عماد كل مشروع نهضوي تحرري .

ويقتضي السياق بعد ذلك الانتقال إلى الإنشائيات التقريرية التي يعبر من خلالها عن اعتزازه وفخره بهذه الأمة الجزائرية وأمجادها العظيمة .

والشاعر يوظف لهذا الغرض العنصر الإشاري (نحن) نحن الألى عرف الزمان ... فهو يفخر بالحسب القديم ، وأن معين ذاك المجد من نسل العروبة .

ويورد الشاعر وصفا تقريريا عن واقع الشعب الجزائري ، الذي استيقظ وانتبه للحياة ، وأخذ لها الأهب ، وهو يؤكد نهضة الشعب وانطلاقته نحو التحرر والسيادة والسعي لإيجاد موقع بين الشعوب ،وقد جاء ذلك في قوله في **البيت 15** :

لنحل مركزنا الذي بين الأنام لنا وجب

وهذا المسعى الذي يطمح إليه الشاعر هو إضافة جهة جديدة انتخها الشعب تناضل وتتحدث باسمه ، ومنهجها الدعوة إلى الحسنى لا إلى الظلم والعدوان كما يزعم المستعمر الفرنسي .

ثم انتقل الشاعر إلى وصف تقريري لمنهج العمل النهضوي في التعامل مع الآخرين ، وطبيعة العلاقات مع الجهات الفاعلة في الساحة .

فعل التقرير ورد هذا الفعل في قوله في **البيتين 18 و19** :

من كان يبغي ودنا فعلى الكرامة والرحب
أو كان يبغي ذلنا فله المهانة والحرب

فالشاعر يقرر طبيعة العلاقة مع الآخرين من الأصدقاء و الأعداء ، وجعلهم صنفان وفق قاعدة المعاملة بالمثل:

**الصنف الأول :** وهم الذين تربطه علاقة مودة وصداقة بأبناء الحركة الإصلاحية ورائدها ابن باديس نفسه ، فهؤلاء مكرمون و مرحب بهم .

أما الصنف الثاني: فهم خصوم الحركة الإصلاحية الذين يضيقون عليها ، ويريدون إضعافها وإفشال مشروعها النهضوي ، فهؤلاء محاربون تعمل الحركة على مواجهتهم ، ولتدعيم القوة الإنجازية لفعل التقرير استعان بالشاكل التقابلي البلاغي الذي يطابق مقابلة الموقف بالموقف ، فمن كان يبغي الود فيقابل بالكرامة والترحيب ، ومن كان يبغي الذل فيقابل بالمهانة والحرب .

وفي فعل تقريري آخر وارد في قوله في **البيت 20** :

هـــذا نظام حياتنا
بالنور خط وباللهب

حيث يقرر الشاعر نظام الحياة ، وخطة السير ومنهج العمل النهضوي مشيرا إلى ما سبق ذكره من الدعوة إلى رفع منار العدل والإحسان ، والدعوة إلى الحسنى ، هذا نظام الحياة الذي خط بالنور وباللهب ، فهو منهج مكتوب بالنور والنار ، في إشارة منه إلى قداسة المنهج الذي يجب اتباعه وعدم الحياد عنه ، وهو منهج مبني على مبدأي العدل والإحسان .

واقتضى المقام إيراد فعل إخباري آخر، لإبراز الغاية من هذا النظام وهذا المنهج المختار، فأورد الفعل التقريري في قوله في **البيت21**:

حتـــى يعـــود لقومنـــا مـــن
مجدهـــم مـــا قـــد ذهـــب

وهو فعل كلامي مباشر فقد حدد الشاعر فيه الغاية من هذه الحركة ، أو هي غاية سامية في قوله :

يعود لقومنا من مجده ما قد ذهب . فالغاية هي السعي لاسترجاع المجد الضائع ، كنا خير أمة أخرجت للناس ، وأصبحنا ضعافا مفرقين ، وفرائس بين أنياب الأقوياء المعتدين ، وعلى هذا فمنهج ابن باديس منهج إحيائي متمسك بالأصول محافظ على المجد ، وعبر عن ذلك بالأداة (حتى) التي تفيد انتهاء الغاية .

ووراء الإخبار فعل كلامي متضمن في القول دلت عليه القرائن ، هو فعل التبيين ، إذ قيد الشاعر المجد الضائع بالأداة (مِن) التبعيضية التي تبين أن هناك بقية من المجد فهو لم يذهب كله ، وبإمكاننا استرجاع الجزء الضائع وفي ذلك دقة في التعبير والتبيين .

وفي ختام سلسلة الأفعال التقريرية اقتضى المقام إيراد فعل كلامي تعهدي من صنف الوعديات Commissives أو كما يسميها البعض الالتزاميات حيث تعهد الشاعر أن يعمل على تحقيق الغاية المنشودة وهي : إعادة المجد إلى الشعب وفق النظام والمبادئ المذكورة ، على أن يبقى التعهد قائما حتى الممات قال الشاعر في **البيت 22** :

هذا لكم عهدي به حتى أوسّد في الترب

ويندرج فعل التعهد ضمن الوعديات بتعبير جون سيرل ، وغرضه الإنجازي هو التزام المتكلم بفعل شيء ما في المستقبل ، وشرط الإخلاص فيه هو القصد Intention أي الغرض الوعدي ، والشرط العام للمحتوى القضوي هو فعل في المستقبل ينجزه المتكلم وهو المحافظة على المجد[13]، والغرض من إيراد التعهد في هذا السياق هو كسب الثقة والمصداقية لدى المتلقي ، وتحقيق مبدأ التصديق (كما يسميه طه عبد الرحمن)[14] ، ويراد به تأكيد الأقوال بالأفعال ، لتكون الأقوال أقوى تأثيرا في السامع ، وهذا ما سعى إليه الشاعر وتعهد به ، والتعهد الناجح هو الذي يقوم على الشروط التمهيدية ، وذلك بأن يكون المتعهد معتقدا قدرته على فهم ما تعهد به ، فالشاعر هنا ملتزم وقادر على إنجاز ما تعهد به من عمل نهضوي لا يكف عنه حتى يوسد في الترب ، وهذا هو مفهوم القصدية في التعهدات ، أما عنصر المطابقة في الوعديات فالشاعر هو المسؤول عن إحداث المطابقة بإنجاز ما وعد ، واقتضى الموقف إيراد فعل كلامي يختم به الشاعر قصيدته وهو الدعاء الوارد في **البيت الأخير** 23 :

فإذا هلكت فصيحتي تحيا الجزائر والعرب

فقد جعل آخر كلامه الدعاء ( تحيا الجزائر والعرب) . فقد وعد بالدعاء بالحياة للعرب عامة وللجزائر خاصة ، وقدم الخاص على العام للاهتمام بأمر المتقدم وللضرورة الشعرية ، فكما بدأ القصيدة بلفظ الحياة بقوله : (خذ للحياة سلاحها ) ، ختم بلفظ الحياة (تحيا الجزائر) والاهتمام بالحياة له دلالة كبيرة فهي تعني: الحضارة والنهضة والتقدم والحياة الفاضلة و العيش الكريم ، هذه الغاية التي يسعى إليها الشاعر فإذا هلك دون تحقيقها ، فإنه يتوسل إلى ذلك بالدعاء ، وتدل الفاء في (فصيحتي) على سرعة التنفيذ ، وهذا رمز الوفاء .

## الخاتمة :

وفي نهاية المطاف وبعد استعراض مكونات القصيدة ومضامينها الدلالية والإنجازية ، ومحتوياتها القضوية وطاقاتها التعبيرية والإبلاغية ، اتضح أن هذه القصيدة قطعة فنية خالدة ، ترددها الأجيال وتتغنى بها ، لاحتوائها على خصائص البقاء والاستمرار ، من وضوح وبساطة وقرب تناول ، فهي التي جمع فيها الشاعر المبادئ والقيم الوطنية ، وعناصر الهوية ، وتنظيم العلاقات، وجعلها دستور حياة ومنهج كفاح وأنشودة نضال ، ومدونة مبادئ وقيم عليا وشعارات قامت عليها الجهود الإصلاحية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ورجالها ، وانطلقت منها نداءات الوحدة الوطنية ، وبناء الذات ، والتصدي للمخططات التغريبية والإندماجية ، والوقوف في وجه المؤامرات المسخ والسلخ والإستئصال .

ومن خصائص المنهج الإصلاحي انه ينطلق من مكونات الهوية : الوطنية والإسلام والعروبة ، ومبادئ العدل والإحسان ، والدعوة إلى الحسنى ، والمحافظة على المنهج المقدس الذي خط بالنور وباللهب ، ثم حدد الشاعر الغاية من العمل النهضوي وهو السعي إلى إعادة المجد الذاهب ، وإحياء الأمة والتمسك بالأصول .

وفي مجال التوجيهات ركز منهج الإمام ابن باديس مجموعة من الأوامر على عنصر الشباب وتربية النشء، والتماس الأسباب وإعداد العدة ، والتسلح بالعلم والصناعة والإنتاج ، ورص الصفوف ومحاربة الانشقاق ، ورد المعتدين .

ومن خلال العرض استخلصنا النتائج التالية

- تضمن الخطاب عناصر إشارية تحيل على المرسل وسلطته الاجتماعية والدينية مما يعطي للتوجيهات قوتها الإنجازية
- الخطاب الشعري الإصلاحي لدى ابن باديس مباشر في أغلبه .
- يعتمد الشاعر الاستراتيجية التوجيهية في تناول القضايا .
- يغلب على النص صنفان من الأفعال الإنجازية هما : الإخباريات والتوجيهات ، وتندرج تحتهما بقية الأفعال الفرعية .
- الشاعر حريص على الوحدة الوطنية ، وحرية الشعب وضمان الهوية .
- العناية بعنصر الشباب وتربية النشء .
- نظام الحياة قائم على المبادئ والقيم العليا ، التي تبنى عليها الحضارة
- السعي للمحافظة على مجد الأمة أو الهلاك دونها .

الهوامش :

1 – ينظر : عبد الهادي بن ظافر الشهري . استراتيجيات الخطاب . مقاربة لغوية تداولية دار الكتاب الجديد .بيروت .ط1/ 4002 .ص 523

2 – ينظر : حسان الباهي . الحوار ومنهجية التفكير النقدي .افريقيا الشرق . المغرب 4002 م. ص 321 .

3 - ينظر : المختار في الأدب والنصوص السنة الثالثة ثانوي وزارة التربية والتعليم . 3891 . ص 793

4 - rioV . nitsuA . woH ot od sgniht htiw sdrow . p 451 .

5 – ينظر : السبكي (بهاء الدين) . عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح . مصطفى البابي الحلبي .مصر 8491 . 2/ 39

6 – ينظر : الطاهر ابن عاشور . تفسير التحرير والتنوير . الدار التونسية للنشر والتوزيع . . 4 /01

7 – عبد الحميد ابن باديس . آثار ابن باديس تحقيق : عمار طالبي . 3/ 093.

8 – ينظر : فليب بلانشيه . التداولية من أوستين إلى غوفمان . تعريب : صابر الحباشة وعبد الرزاق الجمايعي . عالم الكتب الحديث . اربد . الأردن . ط1/2102.

9 – جورج يول . التداولية .ترجمة قصي العتابي الدار العربية للعلوم ناشرون .الرباط . ط1/0102. ص 09

01 – ينظر : ظافر الشهري . مرجع سابق . ص 523

11 –ينظر : عمر بلخير . مقالات في التداولية والخطاب .دار الأمل للطباعة والنشر الجزائر 3102 . ص 84

21 – ينظر : إنعام عكاوي . المعجم المفصل في علوم البلاغة . دار الكتب العلمية بيروت . ط2/ 6991 .ص 422 .

31 – ينظر : :طالب سيد هاشم الطبطبائي . نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب . مطبوعات جامعة الكويت .ص 03

41 – ينظر : طه عبد الرحمن . اللسان والميزان المركز الثقافي العربي .الدار البيضاء . المغرب ص 942 .

# القصائد

# ابن باديس

## شهرزاد مديلة

مِنْ هَالَةِ العِلْمِ فِي مَسْعَاكَ كَالحَقِ
بَانَ الكَلَامُ بَدِيعًا رَائِقَ العَبَقِ
عَبْدُ الحَمِيدِ جَمَالُ السَّيْلِ فِي نَهَرٍ
أَقْوَالُهُ نُسِجَتْ مِنْ بُهْرَةِ الأَلَقِ
يَا مَنْ تَرَبَّى عَلَى فِقْهٍ يُمَكِّنُهُ
أَسْرُ القُلُوبِ عَلَى طُولِ الزَّمَانِ تَقِي
بُورِكْتَ مِنْ عَالِمٍ نَقْتَاتُ أَحْرُفَهُ
فَلَا يُزَعْزِعُ عَصْفُ الرِّيحِ بِالوَرَقِ
عَقْلٌ رَجَاحَتُهُ فِي القَوْلِ وَ العَمَلِ
بِنِسْبَةِ المُصْطَفَى المَنْعُوتِ بِالخُلُقِ
وَ حِكْمَةٌ رَسَخَتْ بِالحِلْمِ نُكْهَتَهَا
فَالعَيْنُ تَنْظُرُهَا نُورًا مِنَ الحَدَقِ
ضَمِيرُهُ الحَيُّ صَاحٍ بَيْنَ أَضْلُعِهِ
فَسَارَ نَحْوَ العُلَى فِي مُعْظَمِ الطُّرُقِ
نَهْجُ البَلَاغَةِ فِي التَّفْسِيرِ مُدْرِكُهُ
كَأَنَّهُ المِسْكُ يُهْدِي أَطْيَبَ العَبَقِ
يَا ثَمْرَةً فِي حَنَايَا القَلْبِ مَنْبَتُهَا
هَذَا الحَمِيدُ غَدَا فِي الرُّوحِ مُعْتَنَقِي
إِنْ كَانَ لِلْأَجَلِ المَحْتُومِ سَاعَتُهُ
فَالنَّاسُ تَذْكُرُهُ فِي الصُّبْحِ وَ الغَسَقِ
لَا لَنْ يَدُومَ عَلَى وَجْهِ الثَّرَى أَحَدٌ
مَا غَرَّدَ الطَّيْرُ فِي الأَيَّامِ بِالأُفُقِ
فَنَمْ قَرِيرًا وَ قَدْ فَازَتْ مَنَاقِبُكُمْ
وَ لَنْ يَفُوزَ سِوَى مَنْ فَازَ بِالسَّبَقِ

# إليك ابن باديس

## زيد الطهراوي

من الأمس يعتقك الفكر كي تستقر السفينة
بقلب له سعة الغيم تأتي رذاذ سكينه
إليك ابن باديس و الصبح فيك يواري الضغينة
كأنك في جرح قومك أنت الدماء السخينة
و أنت الحنين إلى الحق أنت شموع المدينة
إليك و قد غادروك ككل الكنوز الدفينة
إليك ابتسامات جيل أبى أن يفارق دينه
أقول لهم أيقظوه لينقذكم من ضياع السفينه
فقد أزف الليل و استعطفتنا الدروب الضنينة
تقض مضاجع أمتنا كي تظل سجينة
و تخفي وفاء التراث لكل القلوب الثمينة
*** *** *** ***
وكان ابن باديس جذعا ومن حاصروه السراب
أبى في المكاره أن يستظل بزهر الغياب[١]
و حاك الحضارة من أمة الطهر تعلو السحاب
و يرسي جبال الشريعة فوق قلوب الشباب
كتابي هو الشعب نصحي مداد يواري الضباب[٢]
وجمعية العلم تبني فتزهق روح الخراب
وتنبت أجنحة تنتمي للنبي وخير الصحاب
تفرخ أعشاشها فكرة كالسنا لا تهاب
بكل القلوب التي تعشق الحق رغم العذاب[٣]

---

١-في هذا البيت إشارة إلى عودة العلامة عبد الحميد بن باديس من المدينة المنورة إلى وطنه الجزائر ليستفيد شعبه من علمه تاركا الراحة و الأمان.

٢-وهنا إشارة إلى أن العلامة عبد الحميد بن باديس سئل لماذا لا تؤلف الكتب فاعتذر بأنه مشغول بإعداد الرجال و الأجيال.

٣-في الأبيات الأخيرة إشارة إلى الجمعية التي أسسها العلامة عبد الحميد بن باديس (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) وكان لها تأثير كبير في نهضة الأمة وثقافتها و تحررها.

# جزائر

## أحمد بهناس

جزائريٌّ أنَا بالرُّوحِ والجسدِ
من عهدِ آدمَ، لمْ أنْقِصْ ولمْ أزدِ
أكادُ أُجزمُ أنَّ اللهَ ميَّزنَا
بالخلقِ والرتقِ ثم الفتقِ في العددِ
في الأرضِ والبحرِ والأكوانُ شاهدةٌ
وفي الجبال وفي الصحراء والقِددِ
قدْ مدَّدتْنَا الدُّهُورُ منْ لطافتِهَا
عبْرَ التَّواريخِ والأحقابِ منْ أمدِ
إنَّ المقاديرَتجرِي في أعنَّتِهَا
يلفُّهَا الصَّمْتُ، لا تلْوِي على أحدِ

* * * *

مواطَرَ الغيثِ مُدِّي الماءَ منهمرًا
وطرِّزِي الأرضَ بالأزهارِ والغَردِ
أنَا العليلُ وهذِي الأرضُ مُزهِرةٌ
تُشفِي جراحِي من الآلامِ والكمَدِ
أنا العفيفُ وهذي الأرضُ جامعُنَا
سجَّادتِي وصلاتِي، وبها سندِي
أنَاأغَرِّدُ،شعرِيهزَّنِيطربًا
تتْرَىقوافِيوَالأشْطارُفِيمددِ

# ما قصّر ابن الكِرام

## بوبكر بن سبع

حسناء بانَتْ لَنَا يَكْسُو لَهَا الخَجَلُ
لِلثَّغْرُ بَاسِمَة قَوْلٌ لَهَا عَسَلٌ
مثل الْعَرُوسِ لِبَاسُ الطُّهْرِ يلْحفُها
والْوُدُّ حِلْيتُها وَالْحِلْمُ وَالجَذَلُ
نَجْلاَءُ طَيِّبَةُ الأَعْرَاقِ وَالْحَسَب
مَلِيحَةُ الْمُرتأى يَحْلُو بِهَا الْغَزَلُ
مَعَ الْنَّسِيمِ بُدُورُ الْحُبّ تُرْسِلُهَا
لِكُلّ فَجٍّ عَمِيقٍ رُسْلُهَا الْقُبَلُ
فَلَوْ حَيَا سِبَوَيْهِ الْيَوْمَ ثُمَّ رَأى
مِنْ سِحْرِهَا غَابَ عَنْهُ الْنَّعْتُ وَالْبَدَلُ
تَقُولُ دَوْمًا لِمَنْ أَعْيَتْ لَهُ الْسُّبُلُ
الَّيَّ فَاذنُ وَ لَنْ تَحْتَارَ يَا رَجُلُ
وَدَعْ أَسَاكَ اذَا الأَيَّامُ قَدْ عَبَسَتْ
وَاقْبل بِشَوْقٍ فَإنَّ الْعُمْرَ مُرْتَحِلُ
وَفُكَّ قَيْدًا لِهَمَّ أَنْتَ حَامِلُهُ
إنَّ الْهُمُومَ لِطِيبِ الدّهر تَخْتَزِلُ
وَاطْرقْ جُسُورَ فُؤَادِي أنْ شَكَوْتَ أَسَى
بِهَا الْدَّوَاءُ لِمَنْ أَضْنَتْ لَهُ الْعِلَلُ
وَانْظُرْ بِعَيْنَي تَرَى دُنْيَاكَ ضَاحِكَةً
تَرَى الْسَّعَادَة نَحْوَ الرُّوحِ تَرْتَجِلُ
وَاسْمَعْ بِأذنِي لِصَوْتِ الْدَّهْرِ مُغتبِطاً
غَنَّاكَ عَذْبَ الْنَّشِيدِ الصُّبْحُ وَ الطَّفَلُ
وَذِي ذِرَاعِي فَخُذْ أنْ مَسَّكَ الْكَلَلُ
تَجِدْ أَيَادِيَّ عَنْك الآن تَشْتَغِلُ
عَلَى ضِفَافِ فُؤَادِي حُطْ رَاحِلَةً
وانْعِمْ هَنَاءً لكَ الأَرْوَاحُ تُبْتَذَلُ
حُبُّ الْعِبَادِ وحُبُّ الدِّينِ وَ الْوَطَنِ
شِعَارَ مُلْكِي بِقَلْبٍ خَطّهُ الأَزَلُ
وَقَالَ مَنْ حَجَّهَا لِلنَّاسِ نَاصِحَهُمْ
أَنَّ الْهَنَاءَ بِذِي الْدُّنْيَا لَهُ نُزُلُ
شَرِّقْ بِأَرْضِ جِهَادٍ ثُمَّ مَوْطِنُهُ
جُسُورُ *سِرْتَا* بِهَا يَسْتَمْسِكُ بِهَا الأَمَلُ

وَادْخُلْ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ يَرْتَجِي أَمَلاً
كَالزَّهْرِ يَرْجُو لِمَاءٍ إِنْ غَزَا الدّبلُ
تَغْدُو بِعُمْرٍجَدِيدٍ جدَّ مَوْلِدُه
يَصْفُو نَقَاءً مِنَ الأَكْدَارِ يَغْتَسِلُ
فَذِي قَسنطينة الْعَصْمَاءُ قَدْ نَشَرَتْ
لِلْحَاضِرِينَ وَ مَنْ بِالْغَيبِ مَا وَصَلُوا
هَلَا أَتَاكُمْ حَدِيث الدّهر عَنْ قمرٍ
مِنْ صُلْبِ بَطْنِي أَتَى مثلٌ له زُحَلُ
أضاءَ لَمَّا اكْفَهَرَّ الْعَقْلَ مِنْ جَهَلٍ
وَاجْتَاحَتِ النَّازِلَاتُ الأَرْضَ وَ الغِيلُ
عَمَّ الدّروبَ جَمِيعًا نُورُ طَلْعَتِهِ
فَفَرَّ مِنْ ضَوْئِهِ الأَوْهامُ وَالدَّجلُ
ذَاكَ ابنُ بَادِيسَ حُلْوُ الْفَالِ طَائِرُهُ
كَالْغَيْثِ جَاءَ بُعَيْدَ الْجَدْبِ يَنْهَمِلُ
قَدْ كَانَ يَرْوِي مِنَ الْقُرْآنِ مُهْجَتَهُ
وَمِنْ حَدِيثِ رَسُولِ الله يَكْتَحِلُ
قَرْعُ الغُزاةِ بِكلّ الوقت غَايَتُهُ
وَالطَّرسُ صَهْوَتُهُ الأَقْلَامَ يَنْتَصِلُ
وَزَادُهُ الْعِلْمُ والإِيمَانُ وَ القِيَمُ
سَدَادُ رَأْيٍ ذَكَاءٌ فِطْنَةٌ مُثُلُ
بِكُلِّ فَجٍّ لِذي الأَمْصَارِ تَرْقُبُهُ
يَمِيرُ أَهْلاً وَبَيْنَ الدُّورِ يَنْتَقِلُ
وَالضَّادُ كَالسَّيْفِ مِنْ أَقْوَى ذَخَائِرِه
يَزْدَادُ بَأساً لَهُ الأَعْداءُ قَدْ وَجلُوا
كَالآسِ جَاءَ لِذِي الارجَا عَلى عَجَلٍ
يَطِبُّ لَهَا دَاءً لَهُ الْحِيَلُ
فَجَسَّ نَبْضًا لِفِكْرٍ عِنْدَ أُمَّتِهِ
الدَّاءُ صَعْبٌ لَهُ الأَعْدَاءُ قَدْ حَمَلُوا
وَرَاحَ يَرْقُبُ لِلأَسْقَامِ عَنْ كَثَبٍ
مِنْظَارُهُ الْعِلْمُ وَ الإِرْشَادُ وَ الْعَمَلُ
جَمْعِيَّة الْعُلَمَاءِ الْمُسْلِمين بَنى
كالْحِصْن لاَذَتْ بِهِ الأَلْبَابُ وَالمُقَلُ
مِنْهَا سَرَى وَهَجُ التّحْرِيرِ فِي دَمِهم
وَأُسْعِرَتْ جِذْوَةُ النِّقْمَاتِ تَشْتَعِلُ

فَفُجِّرت ثَوْرَةُ التَّحْرِير مُرْعِبَةٌ
كَأَنَّهَا رَجْفَةٌ أَوْ عَاصِفٌ هَطِلُ
فَعَمَّ طَوْفَانُها الأَعْدَاءَ بائِدَهُمْ
وَمَنْ بَقَى مُغْبَطًا بالنَّصرِ يَحْتَفِلُ
وَقَادَهَا خَلَفٌ مِنْ صَفْوَةٍ صَدَقُوا
مَا عَاهَدُوا رَبَّهم بِالرُّوح مَا بَخِلُوا
مِنْهُمْ رِفَاقٌ قَضَوا فِي جَنَّةِ وُعِدُوا
ومَنْ بَقَى مُغْبَطًا بالنَّصرِ يَحْتَفِلُ
ما قَصَّرَ ابنُ الكِرَامِ الأَمْسِ فِي بَذَلٍ

فَالنَّفْسَ أهدى الحِمَى حَتَّى أتَى الأَجلُ
وَخَطّ فِي كَفِّ دَهْرٍ وَصْفَةً خَلَدَتْ
يَعِبُّ مِنْ عِطْرِهَا الأَفْرَادُ وَ الدُّوَلُ
مَا أَفْلَحَتْ أمَّة لَمْ ترو أَبْطُنَهَا
مِنْ رِيحِ أَمْجادِهَا للأَمْسِ لاَ تَصِلُ
خفّت مَوازينُهَا فِي الأرضِ مِنْ وَهَنٍ
كالْعِهْنِ تَلْهُو بِهَا الأرياحُ و السُّبُلُ
يَغْزُو الضُّمور لَهَا تَغْدُو كَعَاجِزَةٍ
يُصِيبُ أَنْسَالَهَا الأَسْقَامُ وَ الْهَزَلُ
تَاتي بِجِيلٍ صِغارُ الذِيبُ تَفْرُسُهُ
في المِثْلِ كَانَ لَهُ الأهبَاقُ وَ الْحَمَلُ
وَلَمْ يَكُنْ أَسدًا تُخْشَى مَخَالِبُهُ
يَرْتَاعُ مِنْ بَطْشِهِ الْمِقْدَامُ وَ الْبَطَلُ
لِكُلِّ بُرْجٍ رَوَاسٍ يَسْتَدِيمُ بِهَا
مِنْ غَيْرِهَا لَمْ يَدُمْ إنْ مَسَّهَا خَلَلُ
مَا أَمْسَكَتْ أُمّةٌ أَشْطَانَ عِزَّتِهَا
إلاَّ رَسَتْ مِثْلهَا الأَطْوادُ وَالجَبَلُ
عَبْدُ الْحَميد لَكَ الأَفْوَاهُ قَدْ حَفِضَتْ
فَأَصْبَحَ الإِسْمُ تَسْتَحْلِي بِهِ القُوَلُ
دُوِّنْتَ فِي خَلَدِ الأَزْمَانِ تُمْسِكُهَا
بِذِكْرِ أَمْجَادِكَ الأَيَّامُ تَشْتَغِلُ
سَيَشْهَدُونَ بِفَضْلٍ يَوْمَ بَعْثِكُمْ
الدَّهْرُ وَالنَّبْتُ وَ الإِنْسانُ وَالْوَعِلُ

*** *** ***

# إصدارات

المجلة العربية
مجلة الثقافة العربية

"تحت الرماد"

مقالات محمود العريان

جمع ودراسة وليد كساب

الإتحاد العام للأدباء و الكتاب في العراق
THE UNION OF IRAQI WRITERS

رواية وحي الحب

للكاتب محمود محمد إبراهيم

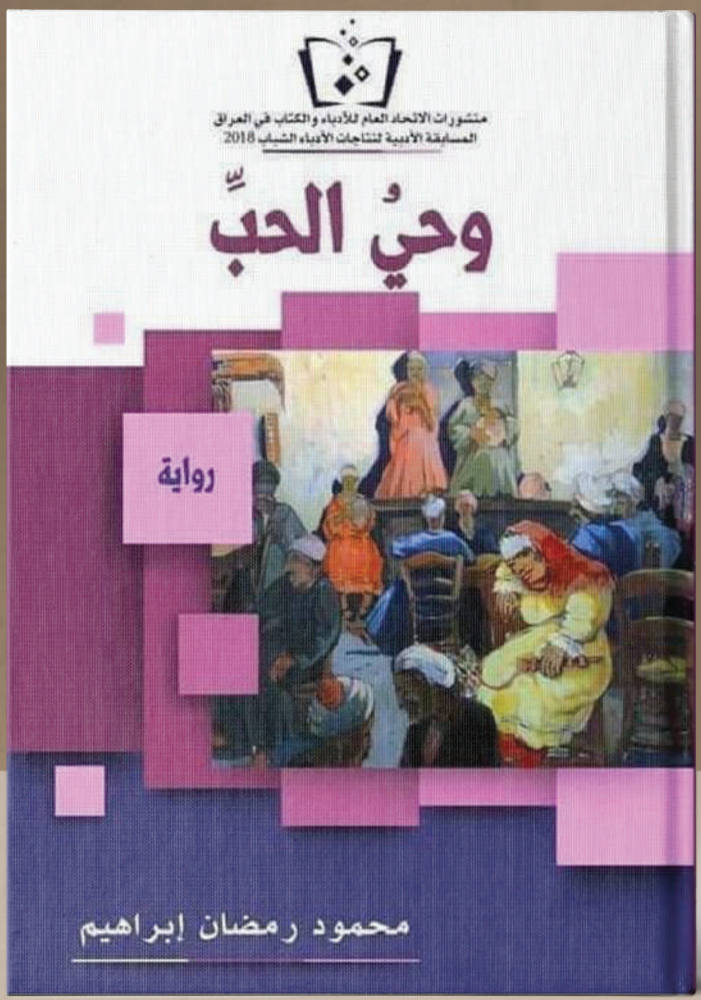

# القصص

# عقدة سعاد

ربيعة برباق

أزال الربيع ستار الشتاء الأبيض عن الجبال والروابي، فابتسم بزهره والورد، فاخضرت وجنتاه بالعشب النضير، وطلبت سناء من زوجها عمر أن يأخذها وأولادها في نزهة الربيع، مع أختها سعاد التي لا تتجاوز الثالث عشرة سنة من عمرها، والتي أحضرتها ضيفة في بيتها، لتقضي بعض أيام عطلتها عندها.

رحب عمر بالفكرة، فطلب منها أن تجهز نفسها والأولاد، فأخبرت بالأمر أختها سعاد، وارتدت جلبابها وخمارها الطويل كالمعتاد.

حملت سناء ابنتها ذات العامين بين ذراعيها، واقتادت ابنها ذي الأربع سنوات من يده، وتبعتها أختها سعاد حاملة سلة الغداء، وهموا بالركوب في سيارة عمر المركونة أمام المنزل.

وما لبثت سعاد تفتح باب السيارة حتى صاح بها عمر غاضبا، وهو يحدق فيها من رأسها إلى قدميها، ماذا تفعلين؟ هل ستذهبين بهذا الشكل؟ عودي إلى البيت وارتدي غيرها من الثياب.

ارتعبت سعاد من كلامه واسود الدنيا في وجهها من الارتباك، كأنها امتصت جميع مصانع الفحم، فأحست بشعور مؤلم، كأن بركانا ينفجر بداخلها، أو كأن زلزالا داهم نفسها، والكون يدور بسرعة من حولها تكاد تقع أرضا، من شدة الاضطراب.

تجمدت في مكانها ولا تدري ما تفعل، تحدق في أختها سناء، التي أصيبت بصدمة مما سمعت، كأن كوكبا وقع على رأسها، وقد أدركت أن كارثة نفسية قد حلت.

حاولت سناء أن تحل عقدة الموقف، وقالت بابتسامة مصطنعة، وهي تحدق في عمق عينيه، الجوحاريا عمر، هذا هو اللباس الذي يليق بالحر، وأضافت بسرعة اركبوا ماذا تنتظرون، هيا اركبوا. فهم عمر الإشارة، وأدرك أنه قد أساء التصرف، وركب الجميع فأقلع بالسيارة.

ساد صمت غريب أجواء الرحلة، حتى الصغار هادئون هذه المرة، كانت سعاد في المقعد الخلفي متكورة على نفسها ترتجف من الصدمة، تتألم في صمت، وكان جرحها يحفر عميقا طوال الطريق، تتأمل نفسها، تحاول أن تطلب منهم العودة إلى البيت، ولكنها تبكمت، كأن عقدة ربطت لسانها، بسبب غصة عالقة في حلقها، لقد أدركت أن صوتها عورة، وأن صورتها عورة، وأن وجهها وقدمها عورة، بل هي تحس بأن حياتها كله عورة.

ثم تكومت على نفسها في ركن من السيارة، كأنها قنفذ يحمي نفسه من الخطر، أو أنها ارتكبت خطيئة فركبها الخجل، لا ترفع عينيها في أحد، حتى في ابن أختها الصغير الجالس بجنبها، يحدق فيها صامتا بذكاء الأبرياء، هو يفهم أن في الأمر سوء، خالته سعاد التي لا تداعبه كما اعتادت بها خطب، أو بها داء.

والصغيرة صامتة لا تزعج والديها بلمس الأشياء، في حجر أمها تجلس هادئة، تنظر إليها تارة وتارة إلى أبيها، كأنها تدرك أن في الأمر خطبا ما.

لا شيء في هذه الرحلة مسموع غير صوت المحرك، حتى الأنفاس حبست، وكل الألسنة تعقدت بسبب ذلك الموقف، تأملت سعاد ابنتها الصغيرة، وتقاذفتها أفكار مخيفة، ليتك لم تكوني أنثى، وتأملت في زوجها طويلا، كأنها لا تعرفه، تحاول استيعاب موقفه، لم يكن في السابق متشددا، لم يهتم يوما بالحجاب، ولم يعلق يوما على طريقتها في اللباس، هل تغير تفكيره أم أنه تأثر بكلام الناس.

لقد أدرك عمر أنه ارتكب خطأ، وأن زوجته غاضبة جدا، ولكنه لم يدرك أنه ترك في نفس سعاد عقدة، قد لا تنفك مع الزمن، لأنه ببساطة رجل شرقي، يحاول أن يصون حريمه من نظرات المرضى والمعقدين، لم يدرك أنها مازلت مجرد طفلة.

كانت سناء تراقب أختها في المرآة، لقد أحست بحجم جرحها، والدمعة في عينها قد حبست، حجمها كموجة البحر تشرف على الخد، وتوشك أن تنسكب، أخذت تكبر في مقلتها حتى تجاوز حجما البحر، فانسكبت بصمت على خدها المتجمد، تحاول أن تفرغها كلها حتى لا يأتي يوم فتبكي فيه ثانية، كانت دموعها تسيل في صمت، وفي سرها تخفي ألمها الكبير، وجرحها العميق يزيد في عمرها سنينا.

لقد كبرت سعاد في تلك النزهة عشر سنوات، وأصبحت امرأة

في لحظات، والفضل لزوج أختها الذي أيقظها من غفلة كانت تعيشها ببضع كلمات، فنظرت إلى نفسها فاكتشفت أنها أصبحت كتلة من العورات، وأحست أن ثياب العالم كلها عاجزة عن سترها، وظنت أنها ربما نسيت ارتداء ملابسها حين استيقظت، وأن الرجال يحدقون بها من كل الجهات، فأغرقت خديها البريئتين بسيل من العبرات. لقد تأزمت نفسيتها وتعقدت، وأحست بالاختناق، كأنها تغرق، أو كأنها تدفن على قيد الحياة.

وفي زحمة السيروضجيج المركبات وأبواق العربات، هناك صمت رهيب يخيم داخل السيارة، حتى وصلت إلى موقف السيارات.

نزل عمر وزوجته والأولاد، وبقيت سعاد تصارع عقدتها، لا يجوز لها النزول بهذه العورات، قميص قصير الكمين، وتنورة طويلة إلى الركبتين، وشعر مسدول إلى الكتفين، ووجه بريء مستديروردي الخدين، نفسها توسوس لها لا: تنزلي بذراعين عاريتين وساقين، إياك أن تنزلي ستصبحين قبلة للمشبوه من النظرات.

تظاهرت سناء بالسعادة، وبابتسامة مصطنعة قالت: الحمد لله، هناك ألعاب شاغرة، هيا أختي أسرعي إلى الأفعوانية قبل أن يزدحم الناس، ستركبين مع الولد، وأنا أركب مع الصغيرة. سنمرح كثيرا.

نزلت سعاد مضطرة، كأن أختها تجرها جرا، وجلست بعيدا عن الناس، وقالت أختي ليس لدي رغبة في اللعب، خذي الأولاد إلى الأرجوحة، وأنا سأتفرج عليكم من هنا، من تحت الشجرة.

فعلا، لقد كبرت سعاد نفسيا، فأغتيلت طفولتها في تلك النزهة، فلم تعد تلعب، لم تعد تتزلج أو تتأرجح، ولم تعد على الحصان تركب، لم تعد طفلة، لا يجوز لها أن تخرج، بعد اليوم لا يجوز أن يراها رجل.

في الحديقة رجال محترمون، ونساء وأطفال يلعبون، وسعاد تحت الشجرة طفلة تحتضر، وبراءة تغادر، خائفة من نظرات وهمية تنهش أنوثتها، لم تعد تسمع زقزقة العصافير فوق الشجرة، وهي تبني أعشاشها، لم تعد تجري وراء الفراشات، لم تعد تقطف الأزهار، لم تعد تسمع ضحكات الأطفال، لأن العقدة في نفسها كانت تبني بينها وبين الحياة حاجزا كصور الصين العظيم.

كانت سناء مشتتة الذهن، عين على ولديها وهما يلعبان، وعين على أختها الجالسة هناك كطير مقصوص الجناحين، تشتبه بكل نظرة، وتنتظر العودة إلى البيت بسرعة، لتختفي عن الأنظار، فأنهت النزهة، وقالت هيا يا ولدي، فلنعد إلى المنزل، يكفي لعبا اليوم، لقد تعبنا.

لا يا أمي، قال الولد... وهو ينظر في عينها فهم سريعا أن الاعتراض مرفوض، وأن أمه اليوم في حالة لا تسمح بالتفاوض، فسار بهدوء أمامها، وركب السيارة، وعاد الجميع إلى البيت متعبين من كثرة الصمت.

كانت نزهة بطعم الصمت، بل عقدة بطعم الموت، قضتها سعاد في بيت أختها سناء الذي زارته لأول مرة منذ زواجها، لم تكن تعرف عن عاداتهم شيئا، لم تكن تعرف عن رجالهم شيئا، لم تكن تعرف أنها ذاهبة إلى حتف براءتها، ومصرع طفولتها.

كيف ستعرف ذلك، وزوج أختها لم يكن يطيل الزيارة، كان يوصلها إلي بيت أبيها، ثم يعود أدراجه، فقد علمه والده أن دخول بيت النسيب والجلوس أو المبيت فيه من دماثة الأخلاق.

بعد ستة أشهر من تلك النزهة المشؤومة، زارت سناء بيت والديها، رفقة أولادها، تحمل معها أشواقها، جلست مع أمها وإخوتها سعيدة بزيارتها، سألت عن أختها: أين سعاد؟

قالت أمها: هي في المدرسة ستعود قريبا، وبينما هما تتبادلان أطراف الحديث، دخلت شابة منقبة، ترتدي جلبابا أسودا يمسح الأرض بأطرافه، وخمارا طويلا يكاد يغطي عينيها.

مرحبا أختي سناء لقد اشتقت إليك، لماذا أطلت الغياب؟.

أهذه أنت أختي سعاد، ماذا فعلت في نفسك، لم أكد أعرفك، لماذا تنقبت عزيزتي؟ ما زلت صغيرة على النقاب.

لا يا أختي، لقد كبرت، لقد صرت امرأة، فوجب علي ارتداء النقاب، لقد فهمت ذلك في آخرزيارة لك، والفضل يعود إلى زوجك.

تذكرت سناء ذلك اليوم الأسود، وأدركت أن سواده ما زال يطبع قلب أختها، وما زالت حاقدة على زوجها، وأنها تخفي وراء ثوبها الأسود عقدة، ستدوم في نفسها طويلا.

وقالت: هل أنت مقتنعة بما تلبسين؟

سكتت سعاد قليلا، ثم تهربت عن الجواب، وقالت أين ذلك المشاغب، لقد اشتقت إليه، تعال إلى حضن خالتك يا أرنوبي الصغير، ما بك ألم تعرفني؟

قالت سناء، وكيف سيعرفك وأنت داخل هذه الخيمة السوداء، اخلعيها عنك، كي نراك.

تظاهرت سعاد بأنها لم تسمع الكلمات، واستمرت في اللعب مع ابن أختها، فبدت كطفلة ضائعة في عالم الكبار، والطفل ينظر إليها مستغربا، لم يفهم ما حل بخالته الصغيرة، فلم تكن هكذا حين رآها في آخرمرة.

# إليك أيها القبر

## صلاح المكاوي
## مصر

فرغَ الإمامُ من صلاة الجمعة، لملَمتْ زينبُ حاجيّاتها التي كانت أعدَّتها لزيارة قبرزوجها كما اعتادت كل جمعة.

انطلقت تجرُّ خلفها خمسَ بنات؛ تركةٌ ثقيلة خلَّفَها الزوج الذي وافته المَنيّة في مقتبل عمره. تعلّقت اثنتان بثوبها، وأُخرياتٌ يقفزْن خلفَها، واعتلت الرضيعةُ كتفَها. ثقيلةٌ هي الخُطى، لايستشعرُها إلا مَن خَطا،

يعلو رأسَ زينب كيسٌ كبيرٌ يحوي بعض الأطعمة والحلوى التي يتلقّفُها الأطفال الذين تخلّلوا المقابر، وكذا الشحّاذون الذين تكوّموا أمام المقابرمنتظرين هذا اليوم بفارغ الصبر؛ لتمتلئ بطونُهم الخاوية، وتعمر جيوبهم الملتصقة من الصدقة والإحسان، وبما يجود عليهم الكريم المنان.

الصغارُ تُزغزغهم الفرحةُ أملا في رؤية أبيهم، والإيناس بحلو حديثه وضحكاته الصافية، وتحقيق وعوده لهم؛ ففكرة الموت والمفارقة الأبدية للحياة لم تتشكل لديهم بعد؛ فمازالوا في طور الطفولة الغضّة التي لاتُنغِّصُها الأكدار، ولايعكِّرُصفوهَا الأقدار.

حطَّت زينبُ أثقالَها، وانطرحتْ أرضًا تحتضنُ القبر وتُقبِّلُ شاهدَه، تبُثُّهُ لواعِجَها الدفينة ومكنونَ شوقها، ودموعُها تَسِحُّ على وجهها فتروي ذبولَه ليستحيلَ نُضرةً وبهاءً،

ثم أنشأتْ تقول:

زوجي العزيز، بعد التحية والسلام، إليك مختصر الكلام:

لقد فارقْتنا وكانت الدنيا بكَ عامرة، كانت أنفاسُك لنا دفئًا وظهرُك متكئًا، وابتسامتُك الحانية مرفأ نجاةٍ بعد كدٍّ وعناء، وصدرُك الرَّحب كان لنا وطنًا متراميا بلاحدود يلملمُنا ويحتوينا.

كنتَ لنا الخِلَّ والصديق، ونعم الزوج لي كنتَ والرفيق.

عذبُ حديثِك مازال صداه يتردد في أذنيّ أنشودةَ حبٍ سُطِّرت في قلبي، ولن يمحوَها الزمن حتى يجمعني بك الله في مستقررحمته.

لقد تنكّب الدهرلي وآلمني البعاد، وغالبني الهمُّ وأرّقني السُّهاد، وقلبَ لي الأصدقاء والأصفياء ظهرالمِجَنّ؛ فمِن طامعٍ فيّ بالزواج على زوجته، ومُتحرّش طالت أظافره بعد تقليم، متناسيًا ودًّا كان بينكما غيرآبهٍ بسُنبُلاتك الخُضر، مُلقيًا عهده الذي أخذه على نفسه بالسُّقيا لهن والرعاية خلف ظهره، وآخرون يختبئون من بناتك، ينكرون الجميل ويجحدون أياديك البيضاء عليهم، وأنت الذي لم تغلق في وجوههم يوما بابا، وكانوا لك أصحابا وأحبابا.

أمسى الليل بعدك موحشًا، تترصّدُنا الذئاب تعوي من كل حَدَبٍ وَصَوْب، وقد كانت تتعالى ضحكاتنا للسماء، ويطوِّقُنا الأنسُ والدفءُ في المساء، وبعدما كان البيت يضجُّ بالأهل والأحباب، صِرتُ أُغلِّقُ عليّ

والبنات بعد العشاء ألفَ باب، تتلاحق أنفاسُنا رعبًا في حياة أصبحت قفرًا يباب، نعدُّ ساعات الليل الطويل ساعة ساعة، دقاتُ قلوبنا باتت تُزعجنا وكأنها المطارقُ على رؤوسنا!

لقد صار الحلوُ بعدك في فمي مرًّا، واستحالَ الربيعُ هجيرا وحرًّا.

نذكرك في كلِّ لقمة لا تسدُّ لنا رمقًا، ونري صورتك على الماء الذي لايروي لنا غُلَّة، مكانُك على الطعام مازال شاغرًا، لم ولن يملأه أحد، وِسادتك أمامي يفوح منها عبقُ أنفاسك ورائحتُك التي تحبها وطالما تضمّختَ بها.

ألم يأتِك نبأُ أخيك، ابن أمك وأبيك؟!

لقد فعل معنا الدنيّة، وشمّر عن سواعده الفتيّة، مكشرًا عن أنيابٍ طالما مزّقَت خُبزًا معك. لقد شرع يطردُنا من منزل العائلة، بُغية ميراثه فيك إذْ لم أُنجبُ لك الذكور، لقد استبدَّ به الصلفُ والغرور، وأضحى يستقوي علينا بأولاده الذين يُنغِّصون على بناتك حياتهم ذهابًا وإيابا، لم يَرُق له مُكثنا في ظل العائلة، ولم يلن قلبُه للبنات اللاتي يلتقمْنَّ الشتاتُ، فأين اذهبُ بهنّ، وقد ماتت أمي ثم أبي جَدهُنَّ؟!

أقبلت الفتياتُ كالغَزالات بعد جولة من اللعب مع صويحباتهن مغْبَرّاتٍ يتعلّقن بباب القبر يجذبنه، تحاولن فتحه، يسألن أُمّهنّ:

لماذا لايخرج والدنا؟! هل يختبئ هنا ليمزحَ معنا ويعدَّ لنا الألعاب؟! لماذا يظل قابعًا هكذا في التراب؟! هل نجري قليلا. يا أمي. ثم نأتي على صوته قائلا: يابنااات، ها أنا ذا؟!

تدخل زينب في نوبةٍ من البكاء الهستيريّ يزلزلُ أركانَها محتضنةً أفراخَها، تخرج الكلماتُ متقطعةً من فمها مصحوبة بحشرجةٍ تكاد تقطعُ عنقَها: إن أباكم لن يعود ثانيةً، لقد فارقنا إلى الأبد وذهب عند ربه الكريم، انخرطتْ الفتياتُ في البكاء مع أمهن وامترجت دموعُهنّ جميعًا لتتقاطرَ على النبْتةِ الصغيرة التي غرسْنها أمام القبر ترويها؛ لتُزهرَ فرجًا وتُثمر أملا بفضل الله؛ فلطالما اتقى صاحبُ القبرِ ربَّهُ وقال قولا سديدًا.

انتفضتْ زينبُ واقفةً، ثم أصلَحتْ هِندامَها ولمْلَمَتْ صغارَها تحت جناحيها وسارتْ بهنّ يحدُوها اليقينُ في فرجٍ من الله قريب.

*** *** ***

# مقالات زمن الحرب والحب

## حنان صادق

نورٌ ونار، نونٌ وراء،

حبٌّ وحرب، حاء وباء: تلك كانت أبجدية الشّام

المكان: دمشق، ربوةٌ ذاتُ قرار، أو قلْ جنّةٌ ذات معينٍ...

نعم، دمشق الشّام ...

ما كان فيها بحرٌ، بيد أنّ الغموض والسّحر يكتنفها، فكأنما البحر يرجوها ويسعى إليها بحنين الاستقرار،وعلى كتف نهرها ينهار، لتكون مرفأ ثباته التائه عبر التاريخ.

وما كان فيها صحراءٌ ، ولكنّ المغامرةَ والهدوءَ ديدنها، فالرمال الشاسعة المترامية؛ كلّما هبت فيها الرياح تفقد إحساس الطبيعة البهيّة، فتذكرها بتلك البقعة من الجنّة لتركن إلى خمائلها المتأنقة وغوطتها المختارة، فيظهر لك شتات الشرق بالغرب ويلتقي بالشام، فكأنما الأرض كلها طويت فيها، ثم نشرت منها، فكلّ بعيد عنها يحنّ إليها.

البداية ...

حينما وطئ آدم وحواء تربتها بعد أن تعارفا، وذاقت روحهما المعذّبة ألم العقوبة، وتولّد ذاك الصراع الأزلي بين الخير والشّر في نفسيهما، فضاقا ذرعا في وحشة الأرض بما رحبت، وقد نأيا بكلكلٍ، وباءا بهمّ يثقل كاهلهما؛ فوقها حُمّلا وذريتهما الأمانة المكلفة، فطفقا يبحثان عن أثر الجنّة في غربة الأرض، فكلّ غريب في غربةٍ كما هما، وكلّ غريبٍ يمسك الجمر كما مسكاه، وكلّ غريبٍ يتيه في أرضٍ لم يألفها كما تاها.

فولّا وجههما شطر الشمال، حينما تعشّقت نفس كل منهما نسائمَ نديةٍ رطبة، محمّلةٍ بأثرِ قد ألِفاه، فبدا من بعيدٍ شيء يشبه رواح الجنّة التي أهبطا منها، فطارت الروح قبل الجسد إليها؛ صفوة البلاد تهفو لها الروح لتصفو بها.

ولجَا أرضها؛ بقليلٍ من الخوف وكثيرٍ من الأمان، لمست هي بشغفٍ أثر قدميهما، وكأنها كانت تبحث عنهما بحنين الوطن لساكنيه، وللوهلة الأولى تزلزلت صِلاب صخورها، واهتزّ معينُ مائها، واضطرب قلبها اضطراب العاشق المشتاق، من هذا الزائر الكريم ..؟؟

لم تكن خطواتهما الثابتة كالمخلوقات السابقة، في خطوهما شيء من رقّة فقدتها الأرض دهرًا، شيء من قدسية السماء ولج ترابها، شيءٌ من ثبات وعزة ووقار، شيء من روح الإله حطّ على الأرض ليحيا، خافت عليهما ومنهما، هي تعي جيدًا أثر المخلوقات التي عاثت في الأرض خرابًا، لكن لا د، لا يشبهونهم في شيء.

تجرأت أن تنظر إلى ذاك المخلوق الجديد، فبهرت به، سحرها كماله، وفتنها جلال نظرته ، ورجولته التي تجللت بسمو التعابير الربانية، وتكللت بقوة القدرة الإلهية فيه؛ أن استقام على قدميه، وتطاول برأسه بشموخ لم تألفه قبلاً، فشعرت أنه جاء ليعمّر لا ليفسد ويهدم.

كان يتكلّم بلغة ألفتها سابقا كانت تعرفها لكن نسيتها أو محاها الزمن الطويل من ذاكرتها، أُنس لهجته جعلها تنشدّ أكثر إليه وتتشبث به وتوقن دون شك أنه هو.. هو آدم عليه السلام، لكنّ معه طيفٌ آخر، ظلّ خلفه متواري على استحياء منه وكان آدم يكلّمه ..فمن يُكلّم!!؟؟

وإذا بها، حورية من حور الجِنان، تبهر العينان وتأخذ اللب وتسْحر الجَنان، وتذهل القدرة المحدودة مهما بلغت من إتقان أن تأتي بقدر ذاك الجمال، لكن الآن تمثلت تلك الجنة بامرأة طاهرة مكتملة في بشريتها وفتنتها وقدّها ..أ هذه حواء ؟؟

حواء.. الأنثى الطاهرة، المشبعة بالحب، والتي أُلهمت معنى السعادة والشقاء معاً، لتجود بهما دون كلل أو تعب لسيدها، كيف لا ؟ وهي الفتنة المختارة لقواعد الاختبار الداعم للخليفة أو الهادم له مع الفتن الأخرى التي ستظهر تباعًا لهما ، ويالها من فتن تموج كموج البحار تأخذ من كليهما أشد لحظات التاريخ ألمًا وظلمًا ثم انهيارًا، كما تعطي أروع لحظات الفرح والانتصار ثم الأمان والسلام. فتنتها شيء يفوق العقل وصفه، سحرها بيان وصمتها أثر نفس، إن اكتملت بعقلها وقلبها، كانت الحكمة المدبرة في عيون الخليفة، وإن نقص أنقصت منه بعضه.

آدم يدرك ذلك ويعيه، فيلهمُه جنونها كما يلهمه عقلها ، يسعده نقصها كما يسعده تمام نضجها، وهو ومع هذا كله يشقى بها وتشقى به إن هي شعرت بضعفه وتزلزله أمامها، تحكمت به.

قويٌّ كان آدم بها على هذه الأرض وضعيفٌ هو أيضًا؟؟

القصة بدأت من هناك واستمرت إلى الآن، قِدم القصة من قِدم وطء آدم وحواء الأرض، حينها ولد الوطن، حينها ولد الانتماء، وبدأت مرحلة الاختبار والاختيار وذاك الصراع مابين استقرار وانهيار.

وهذه أرض الشّام أرض الرسالات وأرض المحشر، قصة البداية

والنّهاية ..

الشّام عبر التاريخ شهدتْ جنون الإنسان، وظلمه كما شهدتْ عدله وحكمته. ومابرحت تشهد دمارًا هائلاً وظلمًا مستباحًا، وبعثرة بعد تمكين وشتاتا بعد أمان ، ومازلت صامدة لذاك الموعد الواقع لا محالة، يوم الحشر الأعظم حينها سترى الوجوه كلها في نظرة اختلاف عما رأته في الأزل، في وجه حواء وآدم، إلى تلك الوجوه المتلاحقة المتتابعة ؛ إلى آخر الوجوه وجوداً.

كم كانت غريبة ومتغيرة تلك الوجوه التي مرّت أمامها، وكم كانت تفقد مابين حين وحين وهج سماويتها وبريق وضاءتها، وتنغمس في أرضيّة المتعة والرذيلة ويخبو رويدا رويدا ذاك النور وقد استمات الشيطان فيها وتفنن، ثمّ ما يلبث يسعفها الله سبحانه بالترياق المبين، يأتي النور فينتشر السلام من جديد بمبعث نبيّ مرسل يكابد تلك الوجوه الحالكة بسواد الشّر والظلم، فينجي الله من يشاء منهم ويهلك من هلك عن بينة من يشاء.... وهكذا دواليك.

أما الآن أنظر إلى تلك الوجوه .. آه كم هي متغيرة شاحبة وملونة ..

تساءلت الآن أين اختفى الإنسان في هذه المرحلة، بيد أني رأيته هنا وهناك للحظات في ملامح الحق يصدح حينًا، وحينًا متواري بين الجموع الهائلة الهائمة ينتظر اللحظة المناسبة.

لكن دائما كان هناك ذات الإنسان في طبيعته البشرية؛ آدم يتخذ من الحبّ والقوّة لبوسَه في كل أدواره، ضعفًا وقوّة، فيهبط به شهوة حيوانية وسلطة جنونية فيبطش ويظلم ويقتل، أو يسمو به مراقٍ سماويّة فيعدل ويعمّر ويهدي، ودوما كانت هناك امرأة بجانب أو وراء أو أمام المختار، وسببًا مؤثرا سلبا وإيجاباً. تعلمون من كان بينهما في كل هذا؟ هي الدنيا، الدنيا دار الاختبار، التي تغرّ و تضرّ وتمرّ. كانت المعاناة أنها دارٌ ومن سمات الدار السقف الحامي، والجدران التي تدرأ الفتن والمصائب والأهوال، والسُّكان فيها أقرباء متحابين، إذ لا يعيش في الدار إلا القريب مع قريبه، والدنيا ماكانت يومًا كذلك..!!

الدنيا فيها غُربة، عدم الأمان في دارها يُفقد الإنسان صوابه بها، تغرّ أرباب الأرض حتى إذا ركنوا إليها، واستمالت قلوبهم لبهجتها وبهرجها الخدّاع، ومالوا ميلان المفتون إلى غنجها ودلالها فاطمأنوا لها، ثم رزحوا تحت عفن نتانتها الذي أتقن تزيينه بجمال وسحرٍ مرقوم، واستقرار وبقاء موهوم، يسمى السلطة حينًا، والعشق حينًا و والمال أحيانًا، حتى إذا استعملتهم لنفسها؛ غدرت بهم وسلبت سعادتهم و أمانهم، إلا من رحم ربي منهم، فغدو خبراً بعد أثر، وهي على هذا حلوة مرة ، قاسية لينة، طيعة عنيدة. ومازالت بهم تنوع فنونها ، ومازالوا هم يخدعهم فنّها.

هذه مقالات كتبتها شام بذراتها عن مرحلة من مراحلها ، قد كان هناك قبلٌ قد أدى إليها ، وسيكون هناك بعدٌ يسطّر نتيجتها أو نهايتها.. ربما ستختلف الكلمات والتصاوير والشخصيات، لكن تبقى الدنيا والذكر والأنثى ..محرّك حروفها وكلماتها.

ونشأت قصصٌ ترويها لكم شام..

# وليد البطل

جهيدة بن عيسى

نظر إلى تلك الكرة بعينيه الشقيتين، وشعره أشعث أغبر، تُرى هل يمضي ويداعبها بقدميه أم يراقبها من بعيد كعادته؟، لم يستطع السيطرة على جسده كأنّ فيها مغناطيسا يسحبه بتروٍ ليقبّلها بحذائه الممزّق ويقذفها إلى بعيد ويصيح عاليًا بضحكة مشعّة وحدقتين لامعتين «قووووول».

فجأة شعر بيد تجذبه من قميصه وتدفعه جانبًا: اذهب من هنا أيّها الوضيع، لا تتجرأ مرّة أخرى على لمس كرتي وإلّا مزّقتُ حذاءك إلى نصفين...

نظر إليه رفيقه وقهقه عاليًا: لا تزعج نفسك يا صفوت، فحذاؤه ممزَّق وبدون أي جهد منك...

تلا كلامه بضحكة عالية جعلت كلّ أصدقائه في اللعب يلتفّون بالصغير النحيف ويصفّقون باستهزاء.

وقف بسرعة وهو يزمجر بين أسنانه: «أغبياء»!

استدار إلى الوراء ليتجنّبهم، فعددهم أكثر منه، وقوامهم أخشن من جسده الهزيل... لكن صوت أحدهم قاطعه:

لا تعد إلى هنا يا ابن الخادمة، لن نسمح بوضيع مثلك أن يلعب معنا...

كوّر قبضة يده الصغيرة، واقترب منه ليلكم فكّه القذر وثغره الذي تفوّه بتلك الحماقة، لكن داخل روحه المكسورة يعلم أنّها ليست حماقة، بل الحقيقة بعينها، الحقيقة التي جعلت نظراته مكسورة وأحلامه محصورة ببضع كلمات: «ليت أبي يعود»!

وقبل أن تلمس تلك القبضة الصغيرة وجه غريمه علت صيحات هاجنة وجنونية: «ابن الخادمة، انظروا إنّه ابن الخادمة»... تجمّدت يده في منتصف الطريق لتهوي أرضًا، تمامًا كقلبه الذي حُطِّمَ منذ قليل، حاول التماسك، وحثَّ عينيه على المقاومة: _يجب أن لا أبكي، فأنا رجل.

لكنَّ عينيه خانتا العهد وأمطرتا بزخّة صغيرة من حرقة وجع على شكل دموع... التقطها بسرعة بكفّه، لكن عادت لتليها مجموعة أخرى من زخّات قهر حسرة وحنين...

ركض بعيدًا بسرعة، تاركًا وراءه حذاءه الرثَّ الذي انتزع من رجله من كثرة الهرولة، فليست أوّل مرّة يحاول فيها الفرار من قدره اللعين، وكلّ ما يجوب بذهنه همهمات مقيتة وأصوات مستنكرة تدعوه بابن الخادمة...

دلف إلى بيته الصغير المتصدعة جدرانه، ليجد أمّه غارقة في كومة من ثياب تغسلها كالعادة، لتحصل على بضع فلسات لن تضاهي أبدًا تعبها... رفعت رأسها نحوه بعدما شعرت بأنفاس متشنّجة تقف بالقرب منها، وابتسمت رافعة مقدّمة شعرها بذراعها، فيداها كانتا متّسختين...

ابتسمت بحنوٍ، وتكلّمت:

- ما بك يا وليد؟ لِمَ عدتَ باكرًا؟ ألن تلعب اليوم مع أصدقائك؟

ظلّ يرمقها - بعتاب - بنظرات حارقة وداخله طوفان يغلي، هي السبب هي السبب في كلّ تلك الإهانات التي يتعرّض لها يوميًّا.

قطّبتْ جبينها، وهتفتْ بحبّ:

- لا بدّ أنّك مُتْعَب، هل أحضر لك شيئًا لتأكله؟ لا بدّ أنّ معدتك الصغيرة جائعة...

ظل جامدًا مكانَه ينظر إلى البعيد، وكأنَّ روحه فارغة...

انقبض قلبها، وقفت بسرعة بعدما مسحت يديها بإحدى الأقمشة، ودنت منه:

- ما بكَ يا حبيبي؟ هل ضايقوك مجدّدًا؟ أقسم لك هذه المرّة سأشكوهم إلى عائلاتهم، ولن يهمّني إذا توقّفوا عن جلب ثيابهم لي...

نفر من كلامها، فقد ذكّرته بجرحه الذي يستحيل أن يلتئم ويخفّ بسببها هي... عاد خطوة إلى الوراء، ممّا جعلها تغيّر نظرها باتّجاه قدميه، نظرت اليه لبرهة وابتسمت:

- إذن حبيبي أضاع حذاءه، فهمت غضبك إذن.

وضعت يدها برفق على مقدّمة رأسه تداعب خصلات شعره الطويلة بحبّ:

- لا تقلق، أعدك أنّي سأحضر لك حذاءً رائعًا عمّا قريب، لا تحزن يا صغيري...

قطّب حاجبيه بحدّة، ودفعها بكلتا يديه:
- ابتعدي عنّي لا تقتربي منّي أنتِ السبب لا أريدك بجانبي أنتِ خادمة خادمة مثلما قالوا، لا أريد لخادمة أن تكون أمّي... أريد أبي... ابتعدي عنّي أنتِ وحذاءك الذي سيكون قديمًا كغيره من الأحذية التي اشتريتها لي من متجر الخردَوات ...
هتف بكلماته تلك، وعاد إلى الركض من جديد، وهذه المرّة خارج منزله الصغير، تاركًا أمّه مفغرة فمها، تنظر إلى الفراغ بعينين مكسورتين وحدقتين مملوءتين بالدموع ...
سقط على قبر والده وهو يصيح:
- لِمَ متَّ يا أبي؟ لِمَ تركتني؟ كنتَ بطلي... كنتَ كلَّ شيء لي...
أغمض عينيه بشدّة وكلام الأطفال يعود ليغزو ذهنه الصغير: «يا ابن الخادمة «! عضّ على شفتيه بغضب لاسيّما بعدما تذكّر كيف كان كلّ شيء رائعًا في حياة والده، فرغم فقره لم يبخل عليه بشيء. همس بين أسنانه دون تفكير:
- يا ليتها ماتت مكانك أنت، ليت أمّي هي من توفّيت وظللتَ أنت بجانبي، اشتقتُ إليكَ أبي اشتقت إليك...
رفع جسده بوهن من قبر والده يمشي بخطى عثرة وقدم تنزف لا يكاد يشعر بوجعها، فقلبه مكسور إلى شظايا بجانبها أي ألم آخر يهون...
استوقفه صوت بكاء طفلة صغيرة تحتضن قبرًا من تراب وهي تصيح:
- عودي إليَّ يا أمّي، اشتقتُ لك... زوجة أبي تضربني بشدّة وتمنع عنّي الطعام حتّى أنّها حرقت يدي واعطت سريري لابنتها، وأنا أنام على الأرض، حتى حذائي الجديد أخذته وأعطتني آخرَ ممزّقًا... عودي إليَّ يا أمّي... أقسم أنّي لن أتعبك مجدَّدًا بطلباتي أرجوكِ عودي...
دفنت رأسها الصغير في قبر والدتها علّ تلك الحُبَيبات الترابيّة تأخذها إلى حضن أمّها من جديد...
لم يشعر بشيء إلّا بسيوله تهطل من جديد من نهر عينيه، كلام تلك الصغيرة أشاح الظلام من عينيه، عباراتها المتألّمة كانت كوخزات صغيرة تقذف إلى قلبه وهو يعود بذاكرته إلى الوراء، بالتحديد قبل يومين جلبت له أمه شطيرة ليتناولها، وأخذت تحرّك صحنًا فارغًا بعيدًا عنه توهمه أنّها تتناول عشاءها، أو تلك المرّات التي تشتري فيها له ثيابا قديمة والفرحة على ثغرها ظنًّا منها أنّها تسعده. كان ينزعج، لكن لم يلاحظ أنّها لم تشترِ لنفسها أيَّ شيء منذ وفاة والده، وتكتفي بثيابها التي تآكلت من كثرة الغسيل...
نفض رأسه يمينًا وشمالًا، تذكّر كلامه وهو يستلقي على قبر والده، تسارعت دقّاته مخلِّفة وراءها جسدًا يكاد يُصاب بالإغماء، لكنّه تحامل على نفسه... وهرول بسرعة عائدًا إلى منزله وإلى حضن أمّه، فهو لا يريد شيئًا غير أن تكون معه.
دلف الى الداخل وهو يصيح:
- أمّي، ها قد عدت يا أمّي...
كانت ترتسم على شفتيه شبه ابتسامه، فهو فعلًا يشعر بالاشتياق إليها، لكن تلك الابتسامة انكسرت بزاوية فمه وهو يرى مكانها المعتاد الذي الذي تجلس فيه لتغسل الثياب فارغًا. ابتلع لعابه ليجري إلى الغرفة الوحيدة. التي يملكانها وهو يهمس:
- أمي...
وجدها فارغة، لا يعلم لكن أمنيته بأن تموت أمّه أخذت تتطاير أمام عينيه بكلمات وحروف من وجع وندم...
ذرفت عيناه دموعًا وهو يبكي بألم:
- أين أنتِ؟ أمّي لا تموتي، عودي إليّ، لن أغضبك أو أصرخ في وجهك مجدّدًا، أرجوك عودي...
اتّجه مهرولًا إلى الخارج، علّه يلمح صورتها، لكن لا لابدَّ أنّها غضبت من كلامه وتركته وحيدًا، فهو لا يستحق أمّا مثلها...
جلس جلسة القرفصاء وهو يشهق بشدّة، وجسده ينتفض بألم، بات وحيدًا دون أب أو أمّ...
دفعت بابها الحديدي، دخلت وهي تحمل علبة بسيطة بيدها.
رفع رأسه لمعت عيناه وشفتاه بابتسامة عريضة:
- أمّي!!!
ركض إليها بقوّة وارتمى في حضنها متشبّثًا بها بقوّة كبيرة وهو يهتف:
- أحبّك أمّي أحبّك... أرجوكِ سامحيني.
ابتسمت له، والتقطت بكفّها الرقيق دموعه التي أبت أن تتوقّف:
- كيف أسامحك وأنا لم أغضب منك بالأساس؟!
توقّف قليلًا يحدّق بها بعينيه الصغيرتين:
- حقًّا يا أمّي؟!
أومأت برأسها وهي تبتسم: حقًّا، فلا توجد أمّ تغضب من قلبها.
ابتسم ابتسامة عريضة هذه المرّة، ورمى جسده عليها من جديد يقبّلها بحرارة...
وضعت تلك العلبة أرضًا وهي تشعر أنّها لامست النجوم بفرحة صغيرها: انظر ماذا جلبت لك؟
أسقط نظره إلى العلبة الموضوعة بالقرب منه، وأجفل عينيه بصدمه: حذاء جديد... هل هو لي أمّي؟!
هزّت رأسها إيجابًا ليحتضنها وهو يصيح: أحبّك أمّي أحبّك...
التقط حذاءه، قبّله، وارتداه بعدما احتضنه وأخذ يقفز وهو يصيح:
- أتعلمين يا أمّي؟ لقد رميتُ الكرة بعيدًا وسجّلتُ هدفًا قويًّا لم يمنعه ذلك السمين... أنا بطل أنا بطل يا أمّي.
ابتسمت بحبّ، ودموع السعادة والخوف من المستقبل تتلألأ في عينيها: - أجل! أنت بطل يا حبيبي... بطلي.

# نيزك النجاة

فاطمة الزهراء بطوش

(لا أحد يملي علي ما يجب فعله). (إلا هي ...) ثم تمتمت: (طبعا فهي ساقطة شقراء أجادت اللعب بك). ثم استطردت: (لم صرت هكذا؟ لم تعد تهتم لأمري منذ سافرت معنا لهذا الفضاء).

- قال متوددا: (أيتها المجنونة أنت زوجتي وهي مجرد طبيبة للطاقم ...).

- قالت بتهكم:( أكان لابد من سفرها معنا ليتها لم ترافقنا؟). (عدنا لنفس ...ألا...)

يقاطعهما حضورها: (مرحبا ... جئت أخبرك أيها الرائد أننا دخلنا محورا خطيرا ... قد يجعلنا نفقد الشعور ... لذا يجب ارتداء البذلة البيضاء و...).

- قالت الزوجة ساخرة: ( ههههه ... يا الله فليخبرني أحد أهذه طبيبة أم رائد فضاء أم؟ أنت مجرد سائحة فضائية ... لا تنس أنك تسببت في موت اثنين من رواد فضاء هاته السفينة بتدخلك الغبي فيما لا يخصك).

- قال غاضبا: (واصلي هكذا حتى تَصِلي بعلاقتنا إلى نفق مسدود ... ربما علينا الفصل فيها عند عودتنا إلى الحياة المدنية).

- أجابت وهي تهم بالانصراف:( فلننفصل في الأمر الآن ... سألقي بنفسي حال مرور النيزك علينا وبلا بذلة النجاة).

ساد بينه وبين الطبيبة فترة من الصمت ثم استطرد:(أرجو أن لا تؤاخذيها ...إنها تمر بأوقات عصيبة ... أعتقد أنها تشتاق لحياتها المدنية). أجابت بتصنع: (لا تهتم ... أتفهم ذلك).

فجأة شعرا بفقدان السيطرة على السفينة تساءلت الطبيبة في خوف عما يحدث.

حاول الرائد شرح ما يحدث:(أعتقد أن السفينة تدور حول المحور الطولي ... والجاذبية تنعدم فيها ... أوربما أحدهم فتح بابها).

واصل مذعورا:(تلك المجنونة ... أعتقد أنها ذهبت خارج السفينة).

- أجابته:(أتظن أن تصل بها الحماقة إلى تنفيذ تهديدها).

لم يحدث وان تجاهل أية كلمة تفوهت بها ... ربما للنساء حدسهن السابق لأوان ما سيحدث. ركض في أرجاء السفينة وهوينادي عليها مذعورا... وصل إلى باب السفينة ومخيلته في الحالة المؤلمة التي ستكون عليها وجسمها يسبح في الفضاء اللانهائي... سبقته عبراته قبل وصول قدميه إلى الباب ... عاد إلى غرفة التحكم ...أخرج بذلة الفضاء ... كان من واجبه أن يحميها ... ألا يسمح لها بالخرج ... كان عليه أن يلزمها بالبقاء داخل غرفة القيادة ...

شعر بتأنيب ضميرقاتل ... لم يستطع التحكم في دموعه.

- قالت الطبيبة غيرمصدقة: (هل ستخرج بمفردك؟).

- أجاب بحسم:( نعم ... ما عليك سوى مراقبة الشاشة الكبيرة ... وأعلميني إذا ما رأيت أي شيء).

- قالت بقلق: (لكن قانون الملاحة الجوية يقضي ألا يخرج أي شخص من السفينة دون رفيق ... أنت تعلم أننا قد نصطدم بالنيزك في أي وقت).

- قال بإصرار: (التي في الخارج هي زوجتي ... وأنت تخبرينني ترهات قانون الملاحة الجوية).

أشار إليها أن تراقب الشاشة...فجأة لمحا نقطة بيضاء خارج السفينة تتطاير... طلب من مرافقته أن تكبر الصورة ... فيما واصل الاتصال عن طريق القمر الاصطناعي وراح ينادي:(من أنت في الخارج عرف بنفسك من فضلك).

- قالت الطبيبة: (لعلها هي). أكدت الزوجة ذلك بصوت بكائها...

- ارتجف الزوج :(حبيبتي تمسكي جيدا بحبل النجاة أنا آت إليك).

- قالت يائسة: (لا لا تخرج أرجوك أنا أرى كرة ملتهبة تتجه صوبي ...أظنه النيزك... ابتعدا... ولتعيشا سعيدين).

أغمضت عينها مستسلمة... شعرت بضغط داخل البذلة أفقدها التركيز... ثم أغمي عليها ... فتحت عينيها، مسحت نظرة خاطفة على أرجاء المكان التي هي فيه... كان وجهه أول ما رأته. سألت:( ما حل بالنيزك؟).

أجاب مبتسما (كان ذاك نيزك النجاة... لقد انحرف عن مساره في اتجاه مغاير... ثم خرجت وأعدتك إلي... لكن ما حيرني كيف خرجت وأنت بك خوف مرضي من السباحة في الجو؟).

قالت وهي تعانق ذراعه:(لكن خوفي من خسارتك تجاوز كل مخاوفي من هذا الفضاء، ولعل النيزك فهم ذلك لذا غير مساره عني).

*** *** ***

# المقامات

# المقامة الباديسية

## عيسى عزوق

حدثنا المُفيدُ بن أبي بحر قال :

جلستُ يوما على جبلٍ عالٍ يعانق السحاب ، أرى فيه الأرض مُدت، والسماءَ قُدّت، من ماءِ الإنتحاب !! ورأيتُ أمامي عودَ الأمل ذوى ، ورشدَ العقلِ غوى ، بعد ما استبيحتْ منهما الرّحاب !!

وبلغَ مني اليأسُ أوجَه ، وابتغيتُ في طَلبةِ الحتفِ عِوجه ،وأرجأت عن إبصار النورِ الرجاء ، كأنني قد انتحلتُ شرَنحلةٍ من الإرجاء !

كانت الروح تختنق من شدة الحسرةِ على كساد الأوضاع، وتكاد تقترب من الهلاك كمدا على المجد والسؤدد الذي قد انهار بنيانُه وضاع !! وكنتُ أحسّ بتجاوب أعضاء الجسد مع بعضها عند التّلف ، تجاوبا تمنيتُه لو كان بين أعضاء الأمة عودةً إلى حالٍ من سَلف !

وكنتُ وأنا في تلك الحال البائسة ، أختط لنفسي من وخط شيبِ الروحِ جادةً على طريق الحياةِ المُتكبرَةِ المائسة ،لعلني أقبس من نارِ الهدى ، أو أنقذ نفسي بنورٍ يُنيرُه مَن على صراط الأمل هدى واهتدى !!

ولو صورتُني بصورةِ الغريقِ ! يمدّ يدا إلى الهواء! وقلبه وطرفه من أملِ الحياةِ هواء ! لكُنت أحقّ الناس بالتصديق ...!!

فبينا أنا في تلك الحالِ المُقضّة ، والنفس بطلب الهُلك مُلظّة ! إذْ انشقّتْ أمامَ مقلتيَّ غمامة ، بيضاءُ كأنها في إلتفافها عِمامة !

جعلت تقتربُ مني كتقريبِ تتْفُل، كأنها عروسٌ في حُللها تتبرج وترفُل ..

**وكأنما شمسُ الأصيلِ مذابةٌ ..**

**تنسابُ فوقَ جبينها الـوهاجِ ..**

اقتربتْ منّي بدا فمنها أنها تتشكلُ على هيئةِ صورة ، ولكنّها كانت عن تمام الظهورِ مقصورة !

تشكلت وتبرجت ،وبدماء الحيرة في نفسي تضرّجت ، وسؤالات العقل عن كنهها من عِيها تدرّجت وتدحرجت !!

فما هي إلا كالتفاتة الضبْع ، وجريانِ ماءِ النّبع ! إذْ ألفيتُ أمامي صورةَ كهلٍ بهيّ الإشراق ، تبعث هيبتُه في القلبِ السكونَ والإطراق ..

ووجها كأن البدرَليلةَ أربعٍ ..

وعشرٍعليه ناصلاً قد تهمَّما ..!!

قال الحُرّبن أبي بحر: فألقى الله في رَوعي أنّ الشيخَ هو باعث النهضة في الجزائر، جاءكَ في هذا الزمن العابس في هيئة زائر!

هو الذي سارذكره في العالمين مسيرَ الشمس في الأمصار، ومن وضع عن شعب هذه الأرض أغلال الجهالة وما بهم من علل الآصار، هو العَلم الفرد والمفردُ العلم، وهو الشامخ الراسخ الثّبتُ العَلَمْ ..

إنه صدقا وحقا إمامنا عبد الحميد بن باديس، مَن صارله في البلدِ فخرا به محِلّةُ التقديس ..

رآني هُنيهةً رجع بها بصره بنفاذِ البصيرة ، إلى التبحرّفي ما بنفسي من آلام الآمالِ الحسيرة !! ونزلت عليّ من نظراتهِ سكينةٌ إيمانيةٌ ربانية ، كتلك التي شهد بها وحدث عنها مَن عرفه معرفةً قريبةً وجدانية !

**مقامُ إمامٍ قـــــام فيه أئمةٌ ..**

**لهم في سماء المجد صرحٌ ممردُ..**

**تراثُ رجال سابقيــن تتابعوا ..**

**هُمُ تابعوا ما قد بناه وشيدوا ..**

همَّ ليكلمني فاستعاذ وبسملَ وحوقل، وخطب خطبة الحاجة كما في الأثرنُقل ، ثمّ قال :

يا بنيَّ ..! جئتك من ذاك الزمن الذي فيه نُعيت إلى نفسها الأمّة ، وسقطت من ذرا المجد فيه الهمّة ، واجتمعت فيه متفرقات الأدواء ! حتى عزّعلى الأساة فيه الدواء !

وأيم الله ما كان لليأس إلينا من سبيل ، ونحن نحمل في صدورنا كلام ربنا العليّ الجليل ، وما وهنّا لما أصابنا في سبيل رفع راية الإسلام والسنة، وما ضرّنا كيد الكائدين بالأهواء الباتكة، والسيوف الفاتكة والأسنّة !

يا بنيّ..! إنّ رفيق الدرب وصديق الروح ، ومن عليه المجد والنبل يغدو ويروح [ الإبراهيمي] قد صورّ لكم الشابّ الجزائري كما تمثله له الخواطر ، فكان من بديع كلماته المؤانس الخواطر : { أتمثله بانيا الوطنية على خمس كما بني الإسلام قبلها على خمس :

- السباب مفسد للشباب.
- واليأس مفسد للبأس .
- والآمال لا تدرك بغير الأعمال .
- والخيال أوله لذة وآخره خبال .
- والأوطان لا تبنى باتباع خطوات الشيطان .

وإني أزيد عليه ما ألقي، إليك يا بني ! فاحفظه حفظَك المولى: "إنّ النصر الذي تنشدونه في ميدان الإصلاح ، لن ترفعوا فيه راية الفلاح ، حتى تجمعوا من الخصال خمسا ، دونهن ..فاحفروا لكم رَمسا :

- تحقيق التوحيد لرب العبيد .
- اليقين ،في ما ابتعموه من شرع من بلغ أعلى اليقين .
- الصبر ، إلى أن يخطبكم الثرى إلى القبر .
- الشجاعة في الصدع بالحق ، دون وجل من الخلق .
- الحكمة التي بها يُساس ، ويعلوا على أسِّها الأساس ..

يا بني .. ! إني ملقنك هذه الأرجوزة الناضحة، بما لعله يرفع عنك بعض ما أنت فيه من عِلة واضحة :

**يا قوم إن النصـر ليـس طعما**
**تناله يســــــرا ولمّا تُدمى**
**يا قـــوم إن النصر لن يكونا**
**لــمن هوى نحو الــردى رُكونا**
**يا قوم ليـــس النصــر بالكلام**
**وكثــــرة العِتاب والملامِ**
**والنــوح بالأطلال كالثـــكالى**
**حتى نـزيد نُكلنا نكـــــالا**
**كلّا ولا تحـــزب الأحزاب**
**كي تجمع المياه في ميـــزاب**
**مِن آجنٍ قد زاده تكـــديرا**
**أن قد رأوا في صفوه تقـديرا**
**كلا وليس النصـــر بالنبال**
**والجمع في السهول والجبـال**
**والقفز عن غوارب الحبـال**
**وقوة السرحان و الرئبـــال**
**يا قوم ليس النصـر في الأجيال**
**بكثرة السلاح والرجـــــال**
**النصرُ خمس إن أردت النصرا**
**أركانه تبنى عليـــــه حصرا**
**تحقيق توحيـــدٍ مع اليقين**
**والصبر في نشـر الهدى والدِّين**
**شجاعة في الصدع والبيـــان**
**من غير ما خوف من الحِدثـان**
**معْ حكمةٍ تسوس الاتّبـــاعا**
**بها ترى الناس لها أشيـــاعا**
**نحن الألى قد أسلموا الوجوها**
**لربنا ورحمةً نـرجـــــوها**
**بديننا نُعـــــزّ في الأراضي**
**والله عنا .. بعــد ذاك راضي**
**فإن طلبنا النصر بالأهـــواء**
**صرنا كقَش ذُرّفي هـــــواء**
**يا قوم إن العزّ بالقـــــرآن**
**والفتح فيه من هداه دانـــي**
**من رام عزا دونه رام الشــطط**
**وكان في هوانه دون القِـــطط**
**والعز والتمكن حتما فيـــــه**
**وخبـــث ذي الخُبث به ننفيه**
**قد جاء في القرآن وعدُ الصـدق**
**والوعد في القلوب بعـض الوَدْق**
**أن العظيمَ ناصــــــرٌ عبادَه**
**إن آمنوا وأخلصوا العبــــاده**

ثمَّ مضى عني خيالُه ، وقد ارتكزت في القلب والعقل مني نباله ، وشكرتُ الله على ما أنعم وهدى ، وصلى الله وسلم على من بعث بالحق والعلم والهدى .

*** *** ***

# مقامة الأحوال

أسامة حسين حامد

لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَال .....

الشَّاعِرِ العَبَّاسِيِّ بَشَّارِبنْ بُرد، كَانَتْ لَهُ جَارِيَةٌ يُكِنُّ لَهَا كُلَّ وُدّ، كَانَ اسْمُهَا رَبَابَة، وكَانَتْ نَشِيطَةً وَثَّابَة، تُعِدُّ لَهُ طَعَامَه، وَتَتَعَهَّدُ ثِيَابَه، فَمَا ذَمَّ خُلُقَاً لَهَا يَوْماً أَوْعَابَه، أَعَدَّتْ لَهُ يَوْماً طَعَاماً شَهِيَّاً أَعْجَبَه، فَأَرَادَ أَنْ يَهَبَهَا مِنَ الشِّعرِ أَنْسَبَه، يَذكُرُهَا فِيهِ بِكُلِّ خَير، وَيَصِفُ مَا عِنْدَهَا مِنْ إِدَامٍ أَوْطَيْر،

فَقَالَ :

رَبَابَةُ رَبَّةُ البَيْتِ

تَصُبُّ الخَلَّ فِي الزَّيْتِ

لَهَا عَشْرُدَجَاجَاتٍ وَدِيكٌ حَسَنُ الصَّوْتِ

فَلَمَّا أَسْمَعَ هَذِهِ الأَبْيَاتَ جُلَسَاءَه، قَالَ أَحَدُهُمْ وَكَأَنَّهُ قَد سَمِعَ مَا سَاءَه: «أَمِثْلُكَ يَقولُ هَذا الشِّعرَيَا بَشَّار؟ فَلَمْ يَبْقَ إِذَنْ إِلَّا أَنْ تَذْكُرَلَنَا مَا كَانَ مِنْ شَأْنِ الْنَّعْجَةِ وَالْحِمَار» فَقَالَ بَشَّارٌ: «هَذَا خَيْرٌعِنْدَ رَبَابَةَ وَأَوْقَع، مِنْ قَوْلِ امرِئِ الْقَيْسِ فِيمَا نَظَمَ مِنْ أَشِعَارِهِ وَأَبْدَع» ثُمَّ أَرْدَفَ قَائِلاً:

«هَذا الشِّعرُفِي مَقَامِهِ أَقْوَىٰ سَمَاعَا، وَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ يُرَاعَىٰ»

وَلَقَدْ خَلَّدَ التَّارِيخُ مَقُولَتَه، كَمَا خَلَّد شِعْرَهُ وَثَبَّتَه، فَأَصْبَحَتْ مَقُولَتُهُ هَذِهِ مَثَلاً سَائِرا، يَرْجِعُ إِلَيهِ كُلُّ مَنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْبَيَانِ حَائِرا، أَيَتَعَجَّلُ فِيمَا يَقُولُ أَمْ يَتَمَهَّل، وَيُجمِلُ فِيهِ أَمْ يُفَصِّل، وَيَعلُوبِهِ فَصَاحَةً وَسُمُوَّبَيَان، أَمْ يَنْزِلُ فِيهِ تَوَاضُعاً بِلَا بَسْطِ لِسَان، غَيْرَأَنَّ الْكَلَامَ فِي جَمِيعِ أَحوالِهِ لَا بُدَّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ أَصْلٍ وَاحِدٍ، فَهُوَ المَنْبَعُ الَّذِي يَأْخُذُ مِنْهُ الْمُتَكَلِّمُ وَيَذَر، أَوْ يَبْتَدِرُمِنْهُ كَلَامَهُ عَلَىٰ حَذَر، وَمَعَ هَذا فَلاَيَكُونُ كَلامُهُ فِي مَجْمُوعِه إِلَّا هَيْئَةً وَاحِدَةً مُتَنَاسِقَة، يَشُدُّ بَعضُهُ بَعضاً فِي ثِقَة: فَيُفَسِّرُتَصْرِيحُهُ تَلْمِيحَه، وَيَطلُبُ مُعْجَمُه فَصِيحَه، غَيْرَأَنَّ هَذا المَثَلَ قَدْ أَصْبَحَ الآنَ يُحْمَلُ عَلَىٰ غَيْرِمَعنَاهُ، وَيُفْهَمُ مِنْهُ مَا لَيْسَ مِنْ مَرْمَاه، كَمَا أَصْبَحَ مَلَاذَ كُلِّ مُخَادِعٍ لَئِيمٍ، وَمَلْجَأَ كُلِّ مُرَاوِغٍ عَظِيم، مَنْ إِذَا تَتَبَّعْتَ آرَاءَهُ فِي شَأْنٍ مِنَ الشُّؤونِ، لَمْ يَتَبَيَّن لَكَ أَعَاقِلٌ هُوَأَم مَجْنُون، إِذْ تَبرُزُ إِلَيْكَ صُورَةٌ مَنْ تَضَارُبٍ فِي الْكَلَام، فَلَا يَكُونُ بَعْضُهُ مَعَ الْبَعْضِ الآخَرِإِلَّا فِي خِصَام، كَلَامٌ يُعَارِضُ بَعضُهُ بَعضا، فَلاتَجِدُهُ إِلَّا تَنَاقُضاً مَحضا، لَا يَسْتَقِيمُ مَنْطِقُهُ فِي الأَفْهَام، أَوْيَجْمَعُ بَيْنَهُ أَيُّ نِظَام، تَتَبَرَّأُ مِنْهُ الْحَقِيقَةُ لِمَا وَقَرَفِيهِ مِنَ الكَذِبِ وَالْمُرَاوَغَةِ وَالْخِدَاع، وَيَتَنَزَّهُ عَنْهُ الشَرَفُ لِمَا يُدَاخِلُهُ مِنَ الْمَكْرِوَالْوَضَاعَةِ وَالاسْتِنطَاع، فَاللَّهُمَّ اكْتُبْ لَنَا السَّلَامَةَ مِنْ مَكْرِهَؤُلَاء، وَاصْرِفْ عَنَّا شَرَّالْقَضَاء، وَسُوءَ الْبَلَاء، وَشَمَاتَةَ الأَعْدَاء، إِنَّكَ قَرِيبٌ سَمِيعُ الدُّعَاء.

# المقامة المدرسية

## صلاح المكاوي

حدَّثنا ابنُ أبي العينين، قال:

وفي ليلةٍ حالكةٍ غابَ عنها القمرْ، جاءني (محروس) الخفيرُ يقْتفي الأثَرْ، يطْرُقُ بابَ الدارِ بكفٍ كالحَجَرْ، فهَرَعْتُ إليه . فزعًا . لأعْرِفَ الخبرْ، والقلبُ يخفِقُ من دهشةٍ ومن وَجَل، فبادرَني يَنهَقُ دُونَما خَجَلْ: ابنُكَ مطلوبٌ للشرطةِ على عَجَلْ، فهاتِه أُسْلِمْهُ للباشا كما مني طُلِبْ، هيّا، عجِّل فحِماري منك قد غُلِبْ!

فقلتُ: لماذا أيها المغْبونُ الأخْرَقْ ؟ فهزَّرأسَه غاضِبًا ثم أطْرَقْ، تابعتُ قائلا: انطِقْ، هل اقترفَ ولدي القتلَ أو سَرَقْ؟ أم في مُسْتنقعِ الرّذيلةِ قد غَرِقْ؟ بل ربما حَازَ الحشيشَ والعَرَقْ !

لا ياسيدي، حَاشَاهْ ! فأنتم أهلُ الفضلِ والجَاهْ، ولايكن بك عليَّ غضبْ، سأقرِّبُ لك المسألةَ وأقتضِبْ ؛ إنَّما أنا خفيرٌمأمورْ ولاشأن لي بخفايا الأمورْ.

لقد انقطعَ نجلُكم عن المدرسةِ بلا إشْعَارْ، وهذا إعلانٌ بغيابهِ وإنذارْ، وشرَعَ (محروس) يلوي عُنقَ الحِمارْ، ويهْمِزُهُ برجليهِ حتى استْدارْ،

رآني مهمُومًا أمُّ العِيالْ؛ فبادرَتْني مُتعجِّلةً بالسؤالْ: لِمَ كلُّ هذا العُبُوسْ؟ وماذا يريدُ الخفيرُمحروسْ؟ فوجهُهُ لا يشِي إلا بالنُّحُوسْ!

فأخبرتُها بما كان بيننا ودارْ؛ فارتمَتْ على الأرضِ بعد دُوَارْ، ثم غالَبتْ

صَدْمَتَها وما لاقَتْ، وقالت بعدما اسْتَفَاقَتْ: أين يذهبُ ولدي كل يوم؟ أجيبُوني . بالله . ياقومْ ، يأخذُ مَصْرُوفَهُ منّي على التَّمَامْ، ثم يلهُوويلعبُ ونحن نِيامْ!

قال ابنُ أبي العينين: سأُباغتُهُ غدًا في المدرسةِ بالزيارة؛ لأقفَ على الأمرِ وصحيحِ العبارة، فيمَّمْتُ . صباحًا . شطرَ الثانوية؛

مدرسةٌ كبيرةٌ عتيقةٌ وأثريَّة، يُغالبُني الحُزنُ والهمّْ، ومابي من ألَمٍ ألَمّْ، ولم أكَدْ أُصَافِحُ البوَّابة، حتى طارَعقلي وفقدَ صَوَابَهُ، ثم هَالَني مارأيتُ وياليتني ما أتيتُ!

عِرَاكًا بين الطلبةِ وشِجارْ، أصواتًا مُزعِجةً وسُعارْ، وتقافُزًا من فوق الأسوارْ، وشُربًا لغليظِ السجائرْ، ملفوفةً مبرومةً كالذَّخائرْ.

ملابسُهم تَلتصِقُ بالأبدانْ؛ فمنها المُمزَّقُ والمُرَقَّعُ والمُهَانْ، ولما سألتُهم قَهْقَهُوا ومَالُوا، وعلى بعضهم ترنَّحوا وقالوا: إنها مُسَايرةُ العَصْرْ والمُوضة، مقبولةٌ منكم كانت أومَرْفوضَة، ورأيتُ قَصَّاتٍ للشَّعْرِغريبة، وكذا لِحَىً وشواربَ عجيبة، وعند السُّؤالْ، أُجِبْتُ في الحالْ: هذه لِحْيةٌ تُركية، وتلك قصةٌ حلزونية، رأيتُم للاعبي الكرة والممثلين يُحاكون، وفي كل وَادٍ يشْطحُون ويهيمون،

وفي أيديهم رأيتُ العَجَبَ العُجابْ! إنه السِّحرُوالخيالُ يا أحبابْ؛ أبصرتُ ألواحًا مضيئةً بها يعْبثُون، وبأصابعهم يأمُرونها ويُمَرِّرون، ويستدعون منها ما يرغَبُون، وقد اسْتغرَقتْهُم تمامًا فلا يشعرون، وسمِعْتُ كثيرًا من سُبَابٍ وشتائمَ نابِية، ومُفْرداتٍ واصْطِلاحاتٍ خَاوية، فأعطيتُهم . غاضبًا . ظهري مُواريًا دهشتي وقَهْري، أُلقي نظرةً على الفِناءْ، أسْتمطِرُ الصَّبرَ من ربِّ السَّماءْ، فألفيْتُ بعضَ الطلابِ يتَندَّرون، يُراوِغُون مُعلِّميهم ويسْخرون، بل وفي الطُّرقاتِ يهربون، وعلى السَّلالمِ يصعدون وينزلون، يستعطفُهم المُشْرِفون للمُثولْ، والامتثالِ للأوامرِوالدخولْ، ولكن لاحياةَ لمن تُنادي، فمازالوا بين رائحٍ وغادي، فدنوْتُ يدفعُني الفُضُولْ؛ لأسألَ عن هدفي المأمولْ، فتذكَّرْتُ مُعلِّمًا هولي جارْ، فقلتُ: إنه المُؤتمنُ هنا والمُستشارْ، لِمَا يعِنُّ لي من

اسْتفسَارْ، فخُبِّرتُ بأنَّهُ لاذَ بالفِرارْ؛ ليتنقَّلَ من دارٍإلى دارْ، وسيعودُ ليلا إذْ لايكفيه النَّهارْ، ففي الخَاصِّ غُنيةٌ عن المجموعاتْ؛ ومظروفٌ واحدٌ يُجدي عن الـهَاتِي وهَاتْ، حيثُ الجِلسةِ المُريحةِ والمَشْروباتْ، وراحةِ القلبِ من بُحِّ الأصوات،

ومِن الطلابِ مَن يرغبُ المجموعاتْ، بعد انتهاء الدوامِ والفتراتْ.

وفصولُ الصَّفِ الثالثِ وجدْتُها شَاغِرَة، تفتحُ أفواهَها تصْفُرُفَاغِرَة ، وأضْحَتْ على عُروشِها خاوية، تحِنُّ لأيامٍ . ما أروعها . خَالية، فصار يتنازعُها في النِّصاب المعلمون، ويرغبُها الجُددُ والأقدمون، إلى أن ينتهي الأمرُبهم فيقتسمون. والزَوْغَانُ سَمْتٌ لِمَن عَدِمَ الضميرْ، كالثعلبِ يروغُ ليُفلتَ ويطيرْ، يرافِقُهُ الشبيهُ والنَّظيرْ، ثم دخلتُ حجرةَ المُدير، فرمَقني بوجهٍ مُنبسطِ الأسَارِيرْ، وقال مَنْ؟ قلتُ: وَلِيُّ أمرٍجئتُ أتابعُ، وَلَدًا لي في ( ثانية رابعٌ ) فرحَّبَ الرجلُ وقدّم واجبَ الضِّيافة، بمنتهى الأدبِ واللِّياقةِ والرَّهافة، ثم أخذ يشتكى مِن الافتقارإلى بعض الدفاترِ والمُكاتبات، وكذا نفقةِ الطِباعةِ لأسئلةِ الامتحاناتْ، وقال: وبجانب العملية التعليمية، نبيعُ الفيشار والعسلية، فيما يُسمَّى بالوِحْدةِ الإنتاجية؛ كي تُوَرَّدَ الحِصّةُ للإدارةِ التعليمية! أيُعقلُ كل هذا؟! ولاتسألني كيف ولماذا،

ولايخفَى عليك تَدَنِّي الأحوالْ، وحقيقٌ أن يُتوّجَ المُعلِّمِ مِن كلِّ الأجيالْ.

وكذا اشْتَكى الرَّجلُ من قلةِ الفصولِ وارتفاع الكثافة؛ لذا حثَّني على التبرُّعِ بكياسةٍ وحَصَافة، فما كان مني إلا أن بَرَمْتُ شَارِبي، ووضعتُ أمامَه كلَّ راتِبي، بعد أن زَجَّ بي في أتُونِ الحَرَجْ؛ فأخذَ ماكان بحَوْزتي حياءً ثم خرجْ، وأرسلَ عامِلًا يطلبُني، وإليه على جناحِ السرعةِ يصْحَبُني.

يقول ابنُ أبي العينين: وكان أنْ رافقنِي الرجلُ في جولةٍ إلى الفصولْ، مرورًا بالمكتبةِ والمعاملِ ثم حُجرةِ الفُحُولْ، فسمعتُ مُعلّمًا بل شاعرًا ينشدُ الأشعارا، وظريفًا يسوقُ طرائفَ العربِ والمُلَحَ والأخبارَا، ثم قارئًا للقرآنِ قد فاقَ صوتُهُ الحُسْنَ والإبهارَا، وأُخْرياتٌ تُعدِّدْن وجوهًا للإعرابْ، لجملةٍ قرأْنَها في كتابْ، فهَزّني الشّوقُ وتسمَّرتْ قدماي، وجَحَظَتْ من دهشةٍ عيناي، ووقفتُ مُنتشِيًا لأستزيدْ، وقُلتُ: الله الله.. هل من مَزيدْ؟!

فاغتبطَ المديرُوطالَ عُنقُهْ، وتنفَّسَ الصُّعَداءَ وزالَ حَنَقُهْ، ثم قادَني إلى الدَّورِ التالي حيث فصولِ الصفِّ الثاني، فإذْ بمعركةٍ حاميةِ الوطيسْ، قد صالَ وجالَ فيها إبليسْ، بين طُلابٍ خالُوا أنفسهم فرسانَ الأحلامْ، لزميلةٍ لهم تُدْعَى (ابتسام) ظنَّ كلٌّ أنها تُبادلُه الشّوقَ والغَرَامْ، فطرحُوا كراريسَهم أرضًا والأقلامْ، وأمسكَ كلٌّ منهم بحِزامْ، قد انتزعَهُ بغيظٍ من عُرَى البِنْطالْ؛ لتكونَ له الغلبةُ والمَنالْ، وانهالوا ضَرْبًا على بعضِهم، وتلطّخَتْ ثيابُهم بدمائِهم؛ فغضبَ المديرُ ونادي بأعلى الصَّوتْ: أين الإشْرَااااافْ؟! لقد شَارَفوا على الموتْ! فجاءَ الوكيلُ والمشرفون يلهثون، وتخلّلوا الطُّلّابَ يَحلُّون المشكلةَ ويفُضُّون، وتم اصْطِحابُ الجميعِ للإخصائيين؛ للتحقيقِ ومعرفةِ المُذنبين، فاشتدَّ الغيظُ لدى المديرْ، فنفَضَ ثيابَه وواصَلْنا المَسِيرْ، وإذْ بطالبٍ يُمْسِكُ مُعلّمًا من خِناقِهْ، قد انعدمَ الأدبُ من أخْلاقِهْ، يجْبِذُه مُغتاظًا ثم للحَائطِ يُسْلِمُهْ، فانتزعتُه من براثنِهِ قبلَ أن يلْكُمَهْ، وكان أن هاجَ المديرُوماجَ، وانهالَ عليه بخَيْزُرانةٍ كالكُرباجْ، ثم أرسلَ في طلبِ الشُّرطةْ؛ ليُنقِذوه من هذه الورْطَةْ.

وضاعت هَيبةُ المُعلِمِ، الذي يُربِّي ويُعلِّم، فياربِ سَلِّم سَلِّم!

يقول الراوي: وسمِعْتُ مُعلّمًا يرفعُ عقيرتَه ببيانْ، وكأنَّهُ عُضوٌ بالبرلمانْ، يُراعي ضميرَه ويُسكتُ طلابَه ويجعلُ منهم أصدقاءَهُ وأحبابَهْ، يسألُ هذا ويُثني على ذاك، يُوقظُ الأفهامَ ويُنبِّهُ الإدْراكْ، وآخرُقد انتصبَ السيركُ بفصلِهْ فلايُعرَفُ أصلُه من فصلِهْ، فيه المُكاءُ والطبلُ والتصدية ، والمعلمُ منهمكٌ في الطَبْطَبةِ والتَّرْضِية؛ فيسقطُ .بلاهوادةٍ. من نظرِ الطلابْ، ولا يحترمُه أحدُهم أويَهابْ، إلى أن انتهى بنا المَطافْ، وأوشكنا على تحقيقِ الأهدافْ؛ ففصلُ ثانية رابع ليس منا ببعيد، تتعالى منه الأصواتُ بالترديدْ؛ فمعلمةُ الكيمياءِ تشرحُ درسَ الأكاسيدْ، طرقْنا البابَ نبغي الاستئذانْ، فسمَحتْ لنا مُعلمةٌ رَزَانْ ، وطَلَبتْ من الطلابِ الصَّمتَ والقِيامْ، فشكرتُ لها صنيعَها والاحترامْ، وشَرعْتُ أسألُ عن الطالبِ (حُسام) فقالت: هو مُسجَّلٌ لديّ في الغيابْ، فهلا وضَّحْتَ لنا الأسبابْ؟! فتمنيتُ لوانشقّت الأرضُ وابتلعتني، وتواريتُ

بين طيّاتِها وما أخْرجَتْني! فأشارَ زميلٌ له يقولْ، فأذِنتْ له المُعلِّمةُ بالمُثولْ: سأقِرُّبما رأيتُ بعيني وأعترفْ؛ يأتي (حسام) حتى المدرسة ثم ينصرفْ، يلهوويلعب ويقترِفُ مايقترِفْ، أغْوَاهُ أصدقاءُ السُّوءِ فتخَلَّفَ عن الرَّكْبِ واخْتلَفْ، وقال آخر: إنه على هذه الحالِ منذ زمنْ، وها أنت .ياسيدي .تدفعُ الثمنْ، فلم تطلْ يداك بلحَ الشامِ أوعِنبَ اليمنْ. خانَتْني قدماي ولم تحملْني، وكادت الحسرةُ أن تقتلَني، فخرجْتُ هائمًا أتحسَّسُ الجُدرانْ، أبحثُ عن ولدي في كل مكانْ، يحملُ الريحُ صوتي إلى الأفقِ البعيدْ: أين أنتَ أيها الولييييييدْ؟ أغذُوكَ بدمي وأُرَبّيكَ من جديدْ، هَلُمَّ؛ فأمُكَ المُنهَكةُ ستصنعُ لك ماتريدْ، ألم تدرِ؟ لقد باعت لأجْلِكَ عِقْدَها الفريدْ.

ألم تَعِدْها بتحقيقِ حلمِها الوحيدْ؛ تطبّبُ الآلامَ وتُبرئُ الجِراحَ، بعد إصرارٍ وإرادةٍ وكفاحْ ؟!

يقولُ ابنُ أبي العينين: فتحامَلْتُ على نفسي حتي وصَلْتُ إلى الدَّارْ، وجلستُ على المَصْطَبةِ وظهري إلى الجِدارْ، والهمُّ في صدري يغلي ويَعْتلِجْ ، والله في عَليائهِ يأذنُ بالفرَجْ، وإذْ بالأذانِ يُهَدْهِدُني ويُشَنِّفُ آذاني، والدموعُ تَسُحُّ لتغسلَ ما آذاني، ثم (حسام) يجري ليرتميَ بين أحضاني، يُقبّلُ رأسي ويديّ وينْتحِبْ، يسْترضي أمَّه يُقبّلُ رجْلَها ويصْطَحِبْ، أمَلًا جديدًا يأْتَلِقُ ويَرْبُو، وعَزْمًا مَاضِيًا لايفَلُّ ولايَخْبُو، وعندها سالت دموع ابنُ أبي العينين، وهو هائمٌ لايدري إلى أين، ثم دعا لـ حسام بالقبول، وأنشأ يعِظُ ويقول:

قل لي بربِّك ما جرى**هل صحَّ عنــدك ما أرى ؟

أم أنّ عيني أظلمت ** بُؤسًا تعــودُ القهقرى ؟

فشبابُنا قد أعلنوا ** عهدَ الغــــوايةِ أسْفرا

جعلوا الغُرابَ إمامَهم ** والخـــــيرُعنهم أدْبرا

لم يذعِنوا لمُعلّمٍ ** عرفَ الطريـــــقَ وأبْصَرا

وتحلّقوا حول الذي ** جعل السَّــفاهةَ مظهرا

أين الشبابُ وعلمُهم ** فالقدسُ يُســرقُ آخِرا

يا قومُ إني ناصحٌ ** بالحقِ في كل الــــــورى

عودوا إلى الحقّ الذي**يهدي العقــولَ جَواهرا

الدين يهتفُ أمتي ** ما صحّ أن نتـــــأخرا

إن الشبابَ عتادُنا ** فاحذر أُخيَّ تدهُـــــورا

*************************

# المقامة الحسينية

محمود العيسوي

حدثنا نادر بن شريف، ذو القول الظريف، قال: «بينما أنا أسير في حي الأزهر، قريبا من المسجد الأنور، إذ بي أرى الزحام، كأنَّما نودي بالبعث في الأنام، والناس حولي من كل لون، فسألت فقالوا: مولد الحسين! فدفعني الفضول إلى تتبع هؤلاء البشَر؛ لعلي أظفر ببعض العِبَر، وكان أول ما قابلني بائعة الحِمَّص؛ إذ وقَف عليها رجلٌ أفطَس، فطلَبَ منها شيئًا يأكلُه، فأخذت تردُّه وتَخذُله، فمدَّ يدَهُ في المِقطَف، وأخَذَ ما يَملأ الكفّ، ومضى يأكله باغتياظ، وهي تسبُّه بأقبح الألفاظ، والناس ترمقهما بضواحك اللحاظ، وساريهمهم باللعن لها والسباب، لكأنَّما فتحَتْ للسانه الباب... ودخلت الساحة الخارجية للمسجد، فإذا هي ممشى ومجلس ومرقد، افترش الناس كل الأرصفة، بالحصير والفرُش والألحفة، وإذا بالأطباق والأواني تملأ المكان، والطعام موضوع على خوانٍ بعد خوان، واجتمع من على الرصيف سكن، كأنهم لم يأكلوا منذ زمن، كان هذا في أول شارع، وطعامهم الأرز والكوارع، فسرت سير المتباطئ؛ أخشى من الخابط والواطئ.. وسرت حتى حاذيت جانب المسجد، عند مدخل النساء للمرقد، فإذا صوان ضخم قد مُدّ، تأملته فإذا خليط من الرجال والنساء، وارتفع صوت الصِّوان بالغناء، وسمعت صوت المزامير والطبول، ورأيت الراقص الحَجول، والناس بين ضاحك ومصفِّق، فسرت بعيدًا عن هذا العمل الأحمق.. وكلما ذهبت إلى جهة من الجهات، هان علي خطبُ ما فات؛ فالحمق متكاثر، والمصاب الجلل متناثر، حتى سلكتُ شارع مطبعة الحلبي، ولم تكن حاجتها ماسةً بي، فإذا صوت المنشد، يملأ المكان كالرعد المرعِد، فسرت متمهلاً من غير عجل؛ لعلمي أن كل شيء بأجل، حتى وصلت إلى المطبعة العريقة، فوجدت صوانًا لطريقة، وأمامه ثلاث بقرات سمان، أعدت للذبح والقربان، يذبحونها لغير الله، وهذا أعظم الخسران ومنتهاه، وما طلبه الحسين ولا يرضاه، وإنما هو غواية الشياطين، وسلوك سبيل الجاهلين، وفعل المشركين، ووقفت أمام المطبعه، أستمع إلى المنشد ومن معه، فإذا صوته غاية العجب، كأنه آلة طرب، حتى إنه شد مسامعي إليه، وهممت أن أجلس إليه، فإذا هو يُنشِدُ زورًا، غره به الشيطان غرورًا، فحاولتُ أن أكتب مقالته لأرويها، ولأبيّن صحيحها من الباطل فيها، فأخرجتُ الدفتر من الحقيبة، فرُمقتُ بألحاظ غريبة، والحال في مصر عجيبة، فعدلتُ عما أكتُب، ووقفتُ وقوف المُعجَب، ثم لذتُ بالبعاد، ويكفي ما سمعتُ من الإنشاد، وكان معنى ما سمعتُ، مما له أنصتُّ، أن الرسول أصل الوجود، ومنه تفرع كل موجود، وأنه كان قبل العهد والميثاق، معروفًا بأنه الترياق، محبوبًا في السماء قبل الخلق، زاعمًا أن قولته الحق، وهذا وربي قول باطل، لا يقوله إلا عن العلم عاطل، والحق في الآية الشريفة: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}، فكان آدم أول الناس في الوجود، ومنه كان البيضُ والسود، وما نبينا إلا ولد آدم، غير أنه سيد العالم، صلى الله عليه وعلى آله، وعلى السائرين على منواله. وخرجت فإذا امرأة جالسة، كأنها شجرة يابسة، قد أمسكت سيجارًا، وأشعلت فيه نارًا، تنفث فيه الشرر، غير عابئة بالضرر، فقلت ما لي ولها، القبر أولى بها. وأويت إلى درب الأتراك العتيق، أرتاح من وعثاء الطريق، فإذا هو مكتبات خلت إلا من أصحابها، فحزنت وتألمت لما حلَّ بها، وأويت إلى المسجد، لعلي أجلس أو أرقد، فإذا بي أسمع الصراخ والسباب، وكأن الحرب قامت بالباب، فنظرت فإذا رجلان تعاركا، وتسابا وتشابكا، وعيَّر كل منهما الآخر بما يعرف، وكلاهما لصاحبه يهذي ويهرف، والناس يحولون بينهما، كأنما حل الجنون بهما، فركبت نعلي على عجل، ودخلت بينهم من

غير وجَل، وحاولت استجلاء الخبَر؛ لعلي أرفع عنهما الضَرر، فإذا هما أخوان ابنا أب وأم، يتصارعان على دنيا العدم، فأمسكت بيد أقربهما مني، وحاولت صده عن التجني، ثم سرت به بعيدًا عن أخيه، وذكرته بأمه وأبيه، وقلت له يا حبيب، أخوك لك الطبيب، والدنيا كلها لا تساوي الأخ، فأطرق هامسًا: أخ، ثم رفع رأسه، وأعاد إليه نفسه، وقال يا مولانا أنت صاحب إحقاق، لكنه من بدأنا بالشقاق، سرق «فيزا» الوالد، وكان لحقنا الجاحد، فلما حاولنا نَهيَه، أقبل يحمل بغْيَه، فحاولتُ إذهاب الثورة عنه، واستلال السخيمة منه، ثم عدتُ إلى ساحة المولد، وما لي غير الاعتبار مقصد.

عدتُ إلى الساحة لحظ الغروب، فزادت النفسَ كروبًا على كروب، وأخذت أجول بين الحضور، فهذا حزين وهذا مسرور، وأخذت أقرأ وجوه الزوار، كعالم ملأ بالكتب الدار، همُّه العِبرة والاستبصار، وأقبل الليل مهيض الجوانب، مما فعلته أيدي الكهارب، لم يبق له غير اسمِه، بعدما ذهب جلُّ رسمه، فما منه غير غياب الشمس، وهذا وربي شيء بخس.

وأقبل الناس من كل فجّ، كأنهم دعاهم داعي الحج، وهم بين صوفي مُريد، وبائع مُستفيد، ومُتنزِّه يبحث عن ملهى، ومُضلٍّ بالناس يتلهَّى، وأجنبيٍّ جاء للسياحة، وكلُّهم قد ملؤوا الساحة.

وبينما أسير في اكتئاب، رأيت ثلاثة من الشباب، قد ملأت وجوههم الضحكات، وارتفعت منهم الأصوات، فقلت لعلهم رأوا ما يسرّ، فإذا أمامهم كل شرّ، رأيت امرأة تبرقعَتْ، كأنها الشمس تقنَّعت، قد وضعت المكياج، ولها دلٌّ واعوجاج، أظهرت العينين وشَطْر الخد، فكأن جمالها ما له حد، جلستْ تُدخِّن الشيشة، كأنها تاجر حشيشة، وبجوارها الأولاد والزوج، يتتابع دخانها كالموج، فعجبت لهذا الزوج النطع، وقد صارت الدياثة فيه الطبع، ووالله ما غار من نظرنا إليها وما ضجر، بل كان مبتسمًا والناس تَسترِقُ النظر! يظنها الناس من ذوات النقاب، ويقولون هذا عجبٌ عجاب، فاقتربت من مجلسها أكثر، لعلي بحقيقتها أظفر، فسمعت رجلاً سائلها: ما للبُرقع ولها، فقالت بتسكُّع، وقد رفعت عن وجهها البُرقع: لبستُه لأتصوَّر، لا أقلَّ ولا أكثر، ولما رأيتُ سِحنتَها، بعدما خلعتْ زينتَها، قلتُ صدق قول القائل، والحق قول الأوائل: كم من براقع، أخفتْ تحتَها ضفادع! وقلتُ كم مِن جاهلة خرقاء، أضلَّتْ بسوء فعلها الدهماء، نسأل الله منهنَّ السلامة، وأن يُجنِّبنا فتنتهنَّ إلى يوم القيامة.

وساءلني رجلٌ وامرأته عن المستشفى، فأعلمتُهما بمكانها وكفى، ثمَّ سألاني عن مرقد الحسين ومقامه، فظننتُه يريد الاستشفاء به من أسقامه، فسألتُه: هل تريد الاستشفاء أو الزيارة؟ وقبل أن أسمع ردَّه، وقد كنتُ أخشى صدَّه، بادرتُه بالكلام، وبالغتُ له في الودِّ والاحترام، وقلت: يا أخا الإسلام، إن كنتَ تُريد أن تستشفي، فلا تتعلَّق بأحد سوى الله وحده، واسأله من خزائن ما عنده؛ فهو المالك الأوحد، وهو الصمد المتفرِّد، يُجيب دعوة المضطر بلا شفيع، قال ادعوني وهو السميع، قال الرجل وزوجته، وقد بدت مسرَّتها ومسرَّته، بل أردنا الزيارة فقط، وما لنا عند الحسين طلب قط، فأشرتُ له إلى القبر المزعوم، رغم علمي بأن وجود الحسين فيه موهوم، وقلت هذا قبر الإمام، فادخلا وألقيا السلام، وسلِّما على الحُسين وجدِّه، ولا تزيدا عن حدِّه ولا تتعلَّق بغير المليك، سبحانه وحده بلا شريك، فشكرني وزوجته، وقد أجيبت سُؤلتُه، ومضى بحياء، وهي معه على استحياء، وسألت الله لهما الفضل وتمام الهداية، وأن يَصرف عنهما مداخل الغواية.

وكدتُ أدخل المقام والمسجد؛ لعلي أعترفهما على ما لم أجد، من العِبَر العظيمة، ومعرفة الآلاء الجسيمة، ثم تراجعتُ عن ذلك؛ لعلمي بما يكون هنالك؛ فقد دخلتُهما مرتين، ورأيت فيهما ما لا يسرُّ العين؛ رأيت مَن يتمسَّح بالحديد، ومن يدعو الحُسَين من دون العزيز الحميد، ورأيتُ من أتى لينال البركات، وليأخذ النفحات، ومَن أتى مِن أقاصي البلاد؛ ليُنجب الذرية والأولاد، ومَن أتى ومعه النَّذْر، ومَن وقف يبسط للحسين العذْر..

فليتَ شِعري مَن أباحَ ذلكَ = وأورَدَ الأمةَ في المهالِكْ؟

وهممتُ بالخروج من هذه الأرجاء، فإذا صوتُ المؤذن ينادي لصلاة العشاء، فهُرعت إلى الجامع الأزهر، ذي البهاء الأنوَر، ودخلتُه فكأنه قطعة من الجنة هبطَت، أو رحمة من رحمات ربي نزلَت، فصليتُ وحمدتُ الله على ما أولاني من العِبَر والعظات، ورجوتُه العفو وغفران السيئات، إنه رحيم قريب مجيب الدعوات».

ثم قام نادرُ مؤذنًا برحيله عنَّا، شاكرًا لنا ما كان منَّا، فودعته وداع المحبِّين، راجيًا لقاءه بعد حين.

*** *** ***

# السراج

العدد الرابع سبتمبر2018 م

الموافق لـــ محرم1439هـ

## منار الأقلام المبدعة ... والكتابات الراقية

**تعلن مجلة السراج عن تغيير في خطتها الخاصة بأركانها وذلك لتصبح كما يلي:**

1- دراسات: وتتضمن مقالات وبحوث علمية وأدبية في مواضيع متعددة.

2- نصوص: ندرج فيه النصوص الشعرية والنثرية من قصائد وقصص ومقامات وغيرها.

3- قراءات: وتعنى بقراءات في الأحداث والكتب التي صدرت في الساحة الأدبية والفكرية.

4- من التراث: تعنى بتراثنا الأدبي الجزائري خاصة أو العربي والإسلامي عامة.

**رئيس التحرير: عنتر رمضاني**